

العدد الرابع - يونيو ٢٠١٥ - شعبان ١٤٣٦
www.braheen.com

دورية فصلية تصدر عن «مركز براهين» لدراسة الإلحاد من منظور علمي فلسفي شرعي

خطر الإلحاد على المجتمع
المواطن الملحد
أبو حب الله

تحليل استقرائي لأعداد
الملحدين العرب
د. هيثم طلعت

الرياضيات والتجربة
رضا زيدان

أزلية الكون بين العلم والزيف
مصطفى قديح

وآن لرحلة التيه أن تنقضي
غادة

في باب التطور:
دعاية زائفة
أحمد يحيى
خداع المصطلحات
عمرو طارق
التطور المتقارب
فؤاد المقدسي



افتتاحية العدد

صفحة جديدة

الحمـد لله والصـلاة والسـلام علـى رسـول الله وصحبه وآله ومَن والاه ثم أما بعد..

إذا أردنـا أن نصـف هـذه الفترة التي مـرت علينا مؤخـرًا في (مركز براهين)، أو تلك التي نمر بها الآن؛ فلن نجـد أصدق من أنها صفحـة جديدة وانطلاقة جديدة في مشـوارنا الـذي بدأناه منـذ قرابة العام ونصف.

وأمـا الجديـد فيها فهـو بداية تحقـق أهدافنا التـي كانـت طـي الأوراق والكتابة تنتظـر التفعيل، وعلـى رأسـها خـروج أول أعمـال ورقيـة مطبوعـة للمركـز فـي «معـرض القاهـرة الدولـي للكتـاب» السـابق، حيث توفـر للجيل الحالي معينـا ومصدرًا موثوقا للرد العلمي والفكري على أشهر أطروحات الإلحاد والتطور، ذلـك الجيل الذي ننظر إليه -ونحن معـه- على أنه جيـل المواجهة الحتمية المباشـرة بين حق واضـح يفتقد الإعلان والإعلام وباطل واضح تسـانده آلـة إعلانية وإعلاميـة كبيـرة لترويجه بين المؤمنين والمسلمين على الأخص.

حيث الناظر للساحة العلمية والتعليمية اليوم يـرى سـير العمـل الحثيـث والمتسـارع والمتلاحـق لغلغلة مثل هذه الأباطيل في مجتمعاتنا المؤمنة بطبعهـا، وذلـك تحـت مسـميات العلـم والتقدم العلمي واللحاق بالركب العالمي الذي بوابته وشرط القبـول فيـه هـو الموافقـة علـى التطـور وانتهاج ماديـة الإلحـاد في أبحاثـه ونتائجه فـي إقحام فج لأيدلوجيـات ما كانت تتسـلل من قبـل في أبحاث العلوم وسبر أسرار الحياة وقوانين الكون!

فتـم بحمـد الله تقديم أكثر من كتـاب باللغة العربية مـن كتابنا الأفاضـل ذوي الخبرات، وكذلك تم تقديم عددا لا بأس به من الكتب المترجمة ذات الثقـل العلمي والتخصصي في نقـد التطور، يليها -بـإذن الله- مجموعة أخرى مـن الكتب المتخصصة -عربية ومترجمة- أوسع هذه المرة في مواضيعها لتشـمل أطروحـات الإلحاد وفلسـفاته ومغالطاته المختلفـة، وكذلك تـم الخوض فـي تجربة ترجمة أشـهر الأفلام الوثائقية العلمية المتخصصة والتي لاقـت قبـولا كبيـرا بيـن متابعينا وأثـرًا طيبًـا عند المهتمين بمجال التطور خصيصا وعلامات ودلالات صنـع الله المتقن في الكـون والمخلوقات وظهور الحيـاة -أو مـا يُسـمى بالتصميـم الذكـي-. ولـن نخـوض فـي تفاصيـل الكتـب حيـث تجـد كافـة التفصيـل التـي تريدها في ملحق العـدد. والجديد والمميـز في هذا العدد أنك تجد ملحقًا آخرا بعنون «هل الإلحاد لاعقلاني؟» وهـي مقابلة أجراها جاري جتنج Gary Gutting، أسـتاذ الفلسـفة فـي نوتردام، مـع فيلسـوف اللاهـوت ألفـن بلانتنجـا Alvin Plantinga، مـن ترجمة وتعليق عبدالله الشـهري (المشرف العام على مركز براهين).

لا يسـعنا في نهاية هذه المقدمـة القصيرة إلا أن نعتـذر لـكل متابعينـا عـن تأخر هـذا العدد كل هذه الفترة السابقة، والتي شملت التحرك في أكثر مـن اتجاه وأكثر مـن إنجاز وفقنا الله إليه، والشـكر موصـول إلى كل مَن دعمونا أو شـجعونا بالقول أو بالفعـل أو بالمشـورة والنصيحـة، نسـأله تعالى أن يجعلنا دوما عند حسن ظنكم بنا.

هيئة التحرير



الفهرس

دورية فصلية تصدر عن:
«مركز براهين لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية»

المشرف العام: عبد الله بن سعيد الشهري

مدير التحرير: م. أحمد حسن

مدير العلاقات العامة والإعلام:
د. هشام عزمي

إدارة الأقسام العلمية: أحمد يحيى
- رضا زيدان - د.هيثم طلعت - مصطفى قديح

الكتاب: أبو حب الله - أحمد يحيى - جميل أبو العباس - رضا زيدان - عبد الله بن سعيد الشهري - عمرو طارق - غادة - فؤاد المقدسي - مصطفى قديح - د. هيثم طلعت

مستشار الشؤون القانونية:
أ. محمود بسيوني عبد الله

المراجعة اللغوية والتصميم والإخراج:
دار الكاتب للنشر والتوزيع

لجميع الاستفسارات يرجى مراسلة:
info@braheen.com

للمساهمة في الأعداد القادمة:
info@braheen.com



الجزء الثاني

الجواب الذي أسعدها

تأملات في الحكمة الإلهية

عبد الله بن سعيد الشهري

وبعد أن أجهشت بالبكاء وهدأت
همَسَت: سبحان الله، الإنسان شيء غريب بالفعل..
كلماتي تعجز..
قلت: نعم تعجز ولكني أسمع جوابك في نبرتكِ
أنا وأنتِ نرى المُحكم في أبهى صوره..
وغيرنا يراه عبثًا، وحتى إن رأى فيه بعض إحكام، أو أثارةً من نظام، لم يرَ في ذلك كله أكثر من دلالته على نفسه...
إن قصة الإيمان ورحلة اليقين...
ليست مسألة أدلة قاطعة وآيات ساطعة...

- إنها قضية مُركبة من ناظر ومنظور...
ففساد الناظر يعتور المنظور
فيُخفي أجمل ما فيه..
فسبحان مَن جعل الانتفاع بما خارج النفس مشروط بتطهيرها مما يعيق ذلك الانتفاع...
(قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا)

- ولذلك نجد طرفي هذه المعادلة في القرآن..
نرى الكون يقابل الإنسان والعكس فالأول آفاقي والثاني نفساني (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ) (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)
فلا تعجبي إذا رأيتِ مَن لا يرى إلا باطلاً (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا)
هذا طبيعي طبيعيّ جدًا...
وهو في مراد الله الكوني -حتى وإن شذ عن مراده الديني- أن يوجد مَن يرى ضرورة وجود الخالق أقلَّ من ضرورة وجود المخلوق!

- زفرت زفرة وقالت:
ما أحكمك يارب ما أعظمك...
ألهذا الحد بلغ الإتقان في العلاقة بين الكون والإنسان !
أجبتها: وما خفي أكبر وأعظم وأجلّ..
ألم تعلمي أن الله قد أودع فينا من أسراره ما لا يكاد يخطر ببال أحد؟
وعندي في ذلك فكرة وتأمل...

قالت: هات ما عندك هاته كله...

- قالت: هات ما عندك هاته كله

قلت: ألم تتفكري يوما من الأيام في حجم البدن البشري مقارنة بأحجام سائر الأشياء في كوننا المشاهد؟

قالت: بلى إنه حجم ضئيل حقير!

[انتابتني ضحكة]

وقلت: كنت أشعر أنك ستجيبين بهذا..

وأكثر الناس بالفعل يلتفت إلى هذا المعنى..

ولكن مرادي أمر آخر إن حجم الإنسان ليس حقيرا إلى الدرجة التي تتخيلها ونسمع عنها كلما أراد واعظ أو شيخ أن يخبرنا عن عظمة خلق الله!

ولكنه ليس كبيرا أيضا...

لقد اكتشف العلماء في ضوء ما لديهم من معطيات أن حجم بدن الإنسان هو وسط بين أكبر شيء نعرفه في الكون (المجرة) وبين أصغر شيء نعرفه وهو عالم (الذرة) أو (ما دون الذرة)...

حتى ريتشارد دوكنز -أستاذ ملاحدة اليوم- وجدته يعجب حرفيا من هذا الوضع المكاني الحجمي المميز للنوع البشري...

ونحن بدورنا -ومن باب من لا يشكر الناس لا يشكر الله- نشكر البروفيسور (جون بارو) أستاذ الفلك والفيزياء الذي توصل إلى هذا الكشف من خلال نموذجه -نموذج أحجام الأشياء على مقياس لوغاريتمي- ولهذا الكشف دلالاته العجيبة والتي سوف تكون محور حديثنا في المرة القادمة.

ولكن إلى أن نلتقي تدبري قوله تعالى:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

فإن لي مع هذه الآية وقفة...

فاجأتني قائلة: ولم التأجيل؟

أخبرني الآن عبد الله..

مهلا لم تفعل هذا عبد الله!

ثم غبت في الأفق...

تمر الأيام وألتقي بها...

كيف أنت اليوم؟

أجابت بلهفة: كيف أنا!

بل أخبرني أنت أولا لم هذا الغياب الطويل؟

أجبتها: وماذا كنت تفعلين طوال تلك المدة؟

أجابت: مكثت أتأمل قوله تعالى (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) وأقلب النظر في كل معنى انقدح في ذهني بسببها...

قاطعتها: وهل شعرت بالملل؟

هل انصرم الوقت قبل أن يفنى تأملك فيها؟

أجابت: كلا كلا...

بل لا أظن الأيام الطويلة تكفي لذلك

[ضحكت بهدوء]

قاطعتني: ما بك؟

أجبت: لا شيء لا شيء

ردت: كيف "لا شيء لا شيء"؟!!

قلت: بصراحة قارنت بين قولك أني غبت طويلا، وقولك أنك استغرقت في تأمل الآية طوال تلك الفترة، فلا أدري ما أصدق...

هل كنت في انتظاري فعلا أم لم تجدي وقتا لذلك بسبب استغراقك في تأمل الآية؟

ردت بخجل: آآه حسنا

أمممم لا بأس، في الحقيقة صحيح أنك غبت طويلا، ولكن ما تركتني فيه بعد ذهابك أذهلني عن مضي الوقت، وماذا تتوقع ممن يقبل على كتاب الله؟!

قلت: جميل جميل

إذا هيا بنا نرى ما عندك أخبريني فكلي آذان صاغية

[زفرت زفرتها المعتادة]

ثم قالت: سأخبرك، ولكن من أين أبدأ؟ وأين انتهي؟

قلت: كنت أعرف أن الأمر عظيم وجليل

ولابد أنك شعرت وتشعرين بهذا

قالت: تماما تماما

ومع ذلك لم يخفت شعوري المتعاظم بقراءتك لأفكاري ومشاعري!

أجبتها [متعجبا]: هكذا إذاييدو!

أنك قد أطلقت العنان لنفسك أن تسبح في ملكوت الآية...

دون أن تكبحيها بزمام الرصد والتنظيم...

إن ما فعلتيه هو أسلوب من أساليب العيش مع القرآن، بل هو من أعظم سبل الاستشفاء به...

هذه السباحة المتحررة من كل قيد...

هي لا تقف بك عند ساحل...

هي تجوال لا نهائي خارج حدود الزمان والمكان...

إن كان هناك حدود أصلا!

ولكن هذا التجوال هو الذي فوت عليك قنص فوائد التدبر التي كنت انتظر سماعها منك...

ولكن لا بأس أتودين أن أخبرك بما لدي؟

والأمر إليك...

أجابت: يالله!

لقد وصفت حالتي، بل وصفتني!

وكأنك كنت معي في تلك الرحلة الأزلية الأبدية...

قاطعتها بهدوء: هنيئا لك..

إذا والآن أتودين أن أقول ما عندي؟

أجابت: تفضل تفضل، وما عذري في منعك!

أنا التي كلي آذان صاغية...

[سادت لحظة صمت... لحظة تأهب]

إذاً استهل الكلام بسؤال: إذا كان الله قد خلق الإنسان في أحسن تقويم، فهل هذا يعني أنه لن يقدر على أن يخلق الإنسان على هيئة أحسن من الهيئة التي هو عليها الآن؟

[سكتت وطال سكوتها!]

قاطعتها: ما بك؟

أجابت: لا أدري بل يقدر يقدر!

[عرفت أنها مترددة]

واصلت حديثي: هنا يأتي دور (جون بارو) و(لورنس هندرسون) و(دارسي ثومبسون) وغيرهم...

إن هؤلاء لم يأتوا بشيء غير ما في الآية، وإنما جاؤوا بما يقرر معناها ويُحبّر فحواها...

إن هؤلاء قد فطنوا إلى الجزء الذي أهمله داروين...

ولو أعاره شيئا من الاهتمام لكان له رأي آخر في قصة الخلق...

إنه مناسبة البيئة والكون في مكوناتهما وخصائصهما لبنية الإنسان وسماته الحيوية...

فثومبسون أبرز التناسب بين الجاذبية وطول الإنسان، بينما لحظ هندرسون أن البيئة صديقة للإنسان أو بعبارة أخرى ممكّنة لوجوده واستمراره مصداقا لقوله تعالى (وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلا مَّا تَشْكُرُونَ)

وهذا التمكين ليس إلا تعبيرا لمجموع الشروط والظروف المعززة لبقاء النوع الإنساني...

وأما المعايش -وفي قراءة "معائش"- فلها كلام طويل، المهم نعود إلى موضوعنا..

وأما (بارو) فبرهن على أن الكون في مجموعه مع ما تضمنه من نِسب حرجة -ومقادير دقيقة أيضا- هو مناسب لحجم الإنسان وفضاء تفكيره، فهو -أي الإنسان- ليس حقيرا صغيرا حتى يرى الجزيئات كالمجرات وليس عظيم الضخامة بحيث يفوت عليه رؤية العلاقات بين الأشياء على مستوى النظر المجرد كما نعرفه نحن في وضعنا الحالي ومن هنا نتلمح معنى جديدا "لحسن التقويم" في قوله تعالى (أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

ويمكننا في آن؛ استجلاء معنى جميلا للآية، وكذلك فهم المراد بصيغة التفضيل على وزن "أفعل" في قوله (أحسن).

ذلك أن المراد هو أن الله قد جعل الإنسان في أحسن هيئة يمكن أن يوجد عليها في العالم الذي هو فيه، وأما في غير هذا العالم -كالجنة مثلا- فلا ريب أن هناك حُسن آخر لوجود الإنسان يتناسب وهيئة ذلك العالم وخصائصه...

وهـذا الإحسـان فـي تقويـم الإنسـان لـه غرضـه الشريف...

وهـو تحقـق معانـي التكليـف واسـتخراج مقاصد الامتحان من وجوده في عالم كهذا العالم...

ولو أردنا التمثيل بالجزئيات على هذا فإنه لا حد لها علـى المسـتوى المـادي والمعنـوي والأخلاقـي والتشريعي...

ولكنـي أُعطيـك مثـالا واحـدا؛ عنـد الإنسـان قـوة أخلاقية اسمها قوة "الوعد" أو "العهد" فهو بطبعه يحتـاج أن "يعِـد" أو "يُعاهـد" فـي حياتـه وفـي معاملاته...

ولكـن تخيلي كيـف يمكن لقوة الوعـد والعهد أن تظهـر أو تنفعـل فـي عالـم خال مـن الزمـن كما نعرفه الآن؟!

إن الله لما يُطالب الإنسـان بالوفاء بالعهد فلا بد أن يسبق ذلك شروط مادية فيزيائية مُمَكّنة ومنها أن يوجـد الزمن؛ أي هـذا التراخي والتباعـد في الوقت ليوجد المستقبل...

وإلا فـإن الوعـد والوفـاء بـه لا معنـى لهمـا بـلا مستقبل يكسبهما دلالتهما في الحاضر

وهكـذا يتماهـى ويتناسـق التركيـب الكونـي مع البعـد الإدراكي مع الوظيفـة الأخلاقية لواحدة من خصائص السلوك البشري!!

وقيسـي علـى ذلـك الكثيـر والكثيـر فقـط ضعي الأشياء في سياقها

فيزول عنك ما يُشكل عليك...

ثـم رأيتها بعد برهة من الزمـن وقد زال بعض ذلك الامتعاض...

بادرتهـا بالكلام: يا نفس هل ذهب عنك بعض ذاك الاستعجام وشيئا من تلك الآلام؟

أجابتني بمفاجأة: مرحبا بعد طول غياب...

نعم ذهب، ذهب الكثير،

ولكن هجم علي قليل خطير!

أنهكني على مر الليالي والأيام!

إنها القشة التي بعثت في قلبي شكوكا كالجبال!

قاطعتُها: هوّني عليك هوّني عليك

تذكّـري مـا مـنّ الله بـه عليـك فـي مـا مضـى من سواطع الأنوار...

كم انقشع من غيمة...

وكم ذاب من همّ...

فاستقبلي أمرك بما استدبرتيه من سعادة...

قالت [وهي تلتقط أنفاسها]: آهآه

ما أجملها من لحظاتٍ تلك

وما أبردها على كبدي!

قلتُ [وشفتاي تلفُّهما ابتسامة صغيرة]:

وما الذي يمنع "عقلا" أو "عادة"

أن يكون القادم أجمل؟

أجابتني [ولغة عيناها تستبق الكلام]: يالك مِن...!

إنك لا تترك فلسفتك الغريبة!

وماذا عساي أن أقول؟

لا يوجد ما يمنع!

قلتُ: فهات ما عندِك...

هاتِ تلك القشة...

بل ذلك الوهم، لنزيده وهنا على وهن...

هات ذلك كله...

فأنتِ على موعد مع...

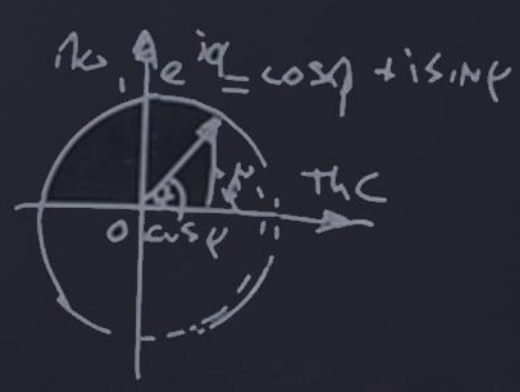
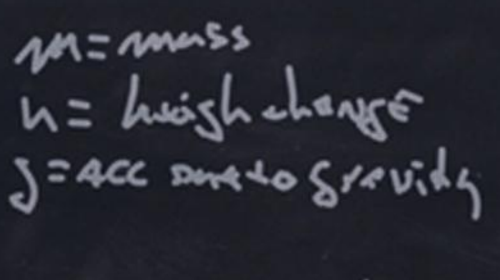
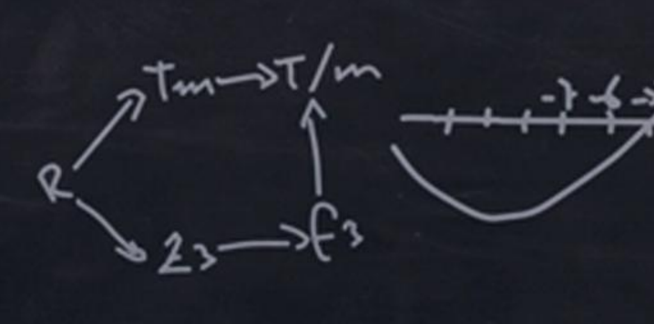
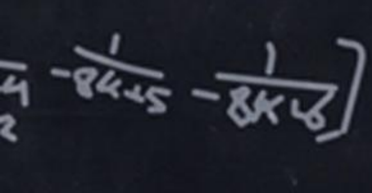
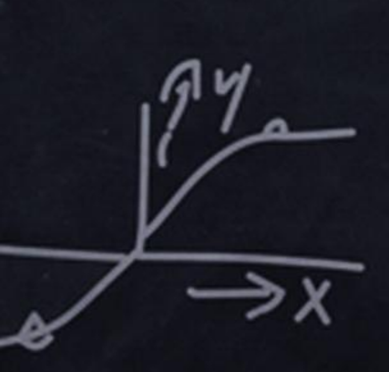
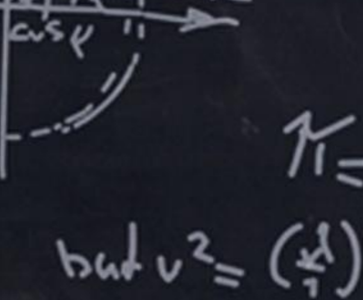
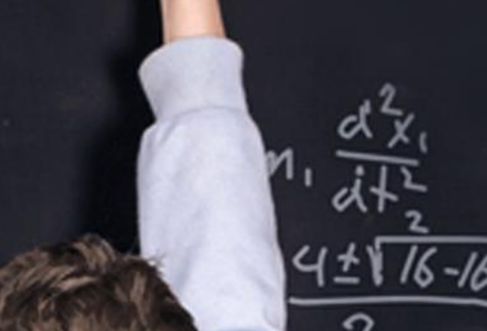
(الجواب الذي أسعدها)

يتبع

الرياضيات والتجربة

رضا زيدان

شذرات معرفية

١- مدخل تاريخي:

كانت الرياضيات عند اليونانيين جذبًا للنفس نحو الحقيقة الخالدة. وكان إمدادها بـ"روح فلسفية"، تحملها للنظر إلى أعلى، لا إلى أسفل. وتجعل الفكر يعتاد على التعامل مع المُجردات بغض النظر عن مُحاكياتها الحسية.

يقول أفلاطون: "ليست مهمة العلم الرياضي خدمة التجار في البيع والشراء كما يعتقد الجهال، بل تيسير طريق النفس في انتقالها من دائرة الأشياء الفانية إلى تأمل الحقيقة الثابتة الخالدة"[١]، فالعدد (٣) مثلا عند اليونانيين له وجود موضوعي مستقل عن تمثلاته المحسوسة في عالمنا الفيزيائي (ثلاثة أقلام)، فالأخير يعتريه النقص والتغير؛ لذلك لم يتردد أفلاطون في إدخال الجمال الرياضي (الأعداد والأشكال الهندسية) في ميدان الخلق الإلهي[٢]، نعم قد خفف أرسطو من فصل أفلاطون وفيثاغورس الرياضيات عن الواقع التجريبي لكن بشكل غير نافع في معرفة العالم وهو المنطق.[٣]

وبعد جهود العرب المكثفة في الرياضيات استكمل الغربيون المشوار الحضاري، ولم يؤت ثماره إلا بدايةً من ديكارت (١٦٥٠م) الذي ساهم بشدة وبطريقة ما جعلت الرياضيات: رمزية، فمثلا عبّر عن الأشكال الهندسية بالرموز فسمح ذلك بإنتاج أشكال غير موجودة في العالم الحسي، وكان هذا بمثابة تحرر من نوع آخر للرياضيات عن العالم، وكان النقاش الفلسفي حول هذه الكائنات الجديدة كما عند لايبنتز وغيره، مع الطفرة المعرفية الكبيرة التي حدثت بعد ذلك على يد نيوتن بوصفه الرياضي للعالم، وبذلك التحمت الرياضيات بالفيزياء، وفي هذه الظروف وعلى منتجات هذا العصر أقام كانط فلسفته في معالجة المشكلة الرئيسية وهي علاقة الرياضيات بالتجربة كما سنرى، ثم بعد نيوتن وما تركه من طمأنينة علمية مفادها أننا في الطريق الواحد المستقيم لوصف العالم، جاءت النظرية النسبية ثم ميكانيكا الكم والتي كانت بمثابة أكبر هزة في تاريخ المعرفة الإنسانية لما قامت به فلسفيًا وعلميًا، وحتى على الجانب الرياضي فقد فعلت الجانب الكمي في الرياضيات والاحتمالات، وبذلك التحمت الرياضيات والفيزياء بشكل جديد، فكيف أمكن للرياضيات التي هي نتاج عقلي عند جمهور المفكرين سلفا وخلفا أن تصف مجهولات التجربة؟ كيف من سيناريو واحد (الواقع الفيزيائي) أن يحصل منه الإنسان على سيناريوهات لا نهائية (الواقع الرياضي) ثم يستخدم الأخيرة في وصف الأولى؟ والأهم لماذا نثق في الرياضيات ولا ندلل عليها؟ وكيف سيجيب المذهب التجريبي عن الضرورة المنطقية كالسببية أو مبدأ عدم التناقض والذي هو القالب الأساسي للرياضيات البحتة وجميع أنواع الفكر الإنساني؟ هل نستمد مبدأ عدم التناقض من تراكمات لخبرات حسية كما فسره هيوم؟ أو هل الرياضيات استقرائية كما تهور جون ستيوارت مل؟

٢- الرياضيات بين (المذهب العقلي) و(المذهب التجريبي):

المذهب العقلي: العقل هو أساس المعرفة ومعنى العقل هو القوانين القبلية (أي المعروفة قبل تفاعل الطفل مع العالم) والتي يفرضها على المعطيات التجريبية، فنحن ننظر للعالم عن طريق السببية وعدم التناقض وهي أسس لا نكتسبها من خلال التفاعل مع العالم، طبعا يسلم العقلانيون أن التجربة تمدنا بالكثير من المعارف لكن توضع المعلومة التجريبية فيما يُشبه أوعية عقلية مُقننة، فمصدر الأمان في توافق معارفنا مع العالم هو العقل الذي يمدنا الله به وهذا واضح عند أعلام المذهب كديكارت ولايبنتز، أما خواص المنطق والرياضيات والقوانين العقلية عموما فتمتاز بالثبات والعمومية والحتمية في أي عالم متخيل، فالضرورة المنطقية وجودية لا تتعلق بعالمنا فقط.

فهناك قوالب عقلية جاهزة لكن كامنة عند الطفل توقد مع أول تفاعل مع العالم، فالسببية إدراكية وليست مُستمدة من العالم المحيط فقط.

وإثبات وجود الله عند هذا المذهب مستقيم وسهل، فأحاكمنا العقلية لا معنى للأمان فيها إلا بفرض حق مطلق إلهي استمد الإنسان منه هذه اليقينيات الوجودية، وأيضا لو طبقنا إدراكنا السببي الوجودي للعالم وبالتأمل في نظامه (دليل العناية) قطعنا بأن العالم له خالق مدبر.

لكن هل الضرورة المنطقية وكيفية تنظيم الإنسان للعالم لها وجود فعليا في الواقع؟ هل الواقع تحكمه بالفعل القوانين التي نفكر بها؟ يجيب الفرنسي الرياضي هيرميت (١٩٠١م) بقوله: "أعتقد أن الأعداد ليست نتاج حر لعقلنا فقط، بل توجد خارجنا وتتصف بالضرورة، ونحن نصادفها ونكتشفها كما يكتشف الفيزيائيون والكيميائيون ولجان ديودنيه وألان كونيه كلام قريب"[٤]، بل ونرى برانشفيك (١٩٤٤م) في اعتقاده أن: "الرياضيات تنظم العالم ليكون خاضعا للعقل"[٥]، وكان راسل في شبابه يقول بوجود هذا المحتوى أيضا.[٦]

المذهب التجريبي: جميع أنواع المعارف مستمدة من التجربة، مهما عظمت معارفنا لا بد أن ترجع للحسيات، سواء كانت المعرفة قوية وواضحة كما في السببية والتي أرجعها هيوم لانطباعات متكررة من العالم، أو تعميمات تجريبية والتي قابلتهم مشكلة الاستقراء بشكل مرعب طوال تاريخ التجريبية[٧]، فقديمًا كانت الإجابة عند أتباع جون لوك وهيوم ومل عن صدق الرياضيات والمنطق ضعيفة أو معدومة، إلى أن شكلتها الوضعية المنطقية في القرن العشرين بشكل مبتكر في منحاها اللغوي، وهذا هو أهم ما في موضوعنا لكن مازلنا لم نصل إليه.

٣- التأليف الكانطي:

بين العقلانين المطمئنين والتجريبيين الشكاك حاول كانط (نتكلم عن كانط الناضج أو مرحلة ما بعد قراءة كتاب هيوم وتبدأ بعام ١٧٦٩م) بناء مَعبر مشترك، فلا يمكن عند كانط أن يكون التفاعل مع التجربة مصدر لأحكام ثابتة مجرد تصور مخالفتها في أي عالم يؤدي بنا إلى تناقض، لابد أن ثمة شيئا يضاف للتجربة من الإنسان لكي ينتج الأحكام القبلية هذه وهو الحدس، فمصدر القبليات ناتج من العقل نفسه، وجعل كانط الرياضيات أحكامًا تركيبية (المحمول يضيف شيئا للموضوع) لا تحليلية كقضايا الهوية، فمثلا: المثلث يُعرف بأنه شكل هندسي مُحاط بثلاثة خطوط مستقيمة متقاطعة، هذه قضية تحليلية عند كانط أما القضية: زوايا المثلث الداخلة فيه



تساوي قائمتين فقضية مُركبة تنتج تصورًا جديدًا غير داخل في تصور المثلث نفسه، هذا التصور قائم من حدس قائم بأنفسنا وجزء تجريبي متعلق بعالمنا، وعند تفاعل الإنسان مع العالم تلتحم مكوناته العقلية القبلية مع العالم التجريبي، ورغم كثرة الجهود المبذولة من كانط إلا أن الفشل لحق به؛ فالهندسة الإقليدية التي يُجلها كانط ويجعل مخالفتها تقود لتناقض منطقي: خانته على يد الهندسات الأخرى كهندسة ريمان، فمشكلة انطباق المعارف القبلية مع العالم الخارجي لم تحل، خصوصًا في القبليات التي لا يمكن أن تتحقق في الواقع كالهندسات الأخرى والأعداد التخيلية واللانهاية وغير ذلك.

من الجيد أيضًا أن نذكر أساس المشروع الكانطي وهو أيضًا مثال للحدس وهو تصورنا للزمان والمكان القبلي، فكانط قدم عملا بالغ الأهمية وهو نقد العقل المجرد حيث ناقش في أوله كيف أن الزمان والمكان حدس إضافي من العقل لرؤية العالم، وكان مما قدمه في هذه المعالجة مناقشته لـ: هل الزمان والمكان علاقات للأشياء فقط؟ أم أنها طريقة للنظر إلي الأشياء؟ وفي الحالتين ما مدي الموضوعية والذاتية فيهما؟ وبالطبع الحساسية الشديدة لهذه الأسئلة للمعرفة البشرية واضحة لأن الضروريات قائمة علي هذين المفهومين، فتصور علاقة بين شيئين

فتصور علاقة بين شيئين -مثل علاقة السببية- قائمة علي أن الشيئين داخل زمان ومكان، ولنسمع هنا مقدمة كانط: "تبدأ كل معرفتنا مع التجربة ولا ريب في ذلك البتة، لأن قدرتنا المعرفية لن تستيقظ إلي العلم إن لم يتم ذلك من خلال موضوعات تصدم حواسنا، فتسبب من جهة حدوث التصورات تلقائيًا، وتحرك الفهم عند مقارنتها وربطها أو فصلها، وبالتالي إلي تحويل خام الانطباعات الحسية إلي معرفة بالموضوعات تسمي التجربة، إذن لا تتقدم أي معرفة زمنيًا عندنا على التجربة بل معها تبدأ جميعًا، لكن على الرغم من أن كل معرفتنا تبدأ مع التجربة فإنها لا تنبثق بأسرها من التجربة، لأنه من الجائز أن تكون معرفتنا التجريبية عينها مُركبة مما نتلقاه من الانطباعات الحسية، وما عن قدرتنا المعرفية (المُحفزة وحسب بالانطباعات الحسية) يصدر تلقائيا ويشكل إضافة لا نفرقها عن المادة الأولية قبل أن يكون طول التمرن قد نبهنا وجعلنا ماهرين في تمييزها منها.

وهنا يكون سؤال التجريبية المحضة: من أين لكم هذه القضايا (أو الضروريات)؟ وإلي ماذا تستند أهميتها لترتقي إلي هذه الحقائق الضرورية إطلاقا والصادقة كليًا؟ ليس ثمة طريق آخر إلا من خلال الأفاهيم والحدوس، وهي إما قبلية (أو ضرورية من خارج التجربة) وإما مُعطاة بَعديا (أي من التجربة)، وهذه الأخيرة لا يمكن أن تنطوي على الضرورة والكلية المطلقة[٨]، فالزمان عند كانط لا موضوعي ولا جوهر ولا عَرَض بل شرط ذاتي ضروري في طبيعة العقل الإنساني من أجل التنسيق بين المحسوسات.[٩]

فكانط لا يسلم للعقلانيين أن الأفكار عقلية خالصة ولا يسلم للتجريبيين أنها حسية خالصة؛ ويخالف التجريبيين خاصة في نقطة هامة وحاسمة وهي أن الرياضيات قبلية تركيبية، وهذا يعني أن هناك قضايا تزودنا بالمعلومات عن العالم ولكن حقيقتها مع ذلك قبلة ضرورية، وقد مثل كانط لذلك بالسببية والتي عبر عنها بقوله: " كل تغير يحدث وفقا لقانون الرابطة بين السبب والنتيجة ويقول كانك أن هذه القضية ليست تحليلية لأن مفهوم التغير لا يتضمن منطقيا فكرة شيء يتسبب، ولكنها قضية حقيقية شاملة وضرورية يمكن أن يبرهن عليها العقل البشري، وما كتاب نقد العقل الخالص إلا محاولة لكيفية أن تكون الأحكام التركيبية قبلية ممكنة.[١٠]

وفي كتابه أيضًا ينتقد المشروع العقلاني بقوة ولا يعترف بأي إدراك خارج التجربة الحسية وأن البحث في الماهية وذات الشئ أمر متناقض، ويلخص نقده للعقلانية في قوله: "إن اليمامة الخفيفة التي تشق الهواء بطيرانها الحُر قد تتصور أن الطيران سيكون أسهل في فضاء فارغ!"، لكنه مع ذلك يرفض بقوة أن الإحساس الصرف يمكن أن يكون مفهومًا ما وهو ما تقوم عليه التجريبية، ونلخص التأليف الكانطي بقوله: "الأفكار من دون المحتويات فارغة، والحدوس من دون المفهومات عمياء".[١١]

لكن كيف يثق الإنسان في صحة الضرورية للقبليات؟ مذهب كانط فطري إلى حد ما ولكنه يختلف عن فطرية ديكارت في أن الأخير يزعم أن الأفكار مستقلة تمامًا عن التجربة، ولكن لم يفلح كانط في الإجابة عن علاقة الضرورة بالواقع وما هو مقدار الذاتية فيها وتدخل التجربة، والأشد من ذلك لم يفلح في نقد تجريبية هيوم وتفسير السببية ارتباطيًا وعاديًا، إن ما فعله هو استبدال الرابطة بحتمية ذاتية تنشأ من مجرد تفاعل العقل مع التجربة لينتج توافق مسبق بينهما!، فميل الذهن لفرض تصور ما للواقع لا يُعطي مُبررًا للضرورة أبدا.

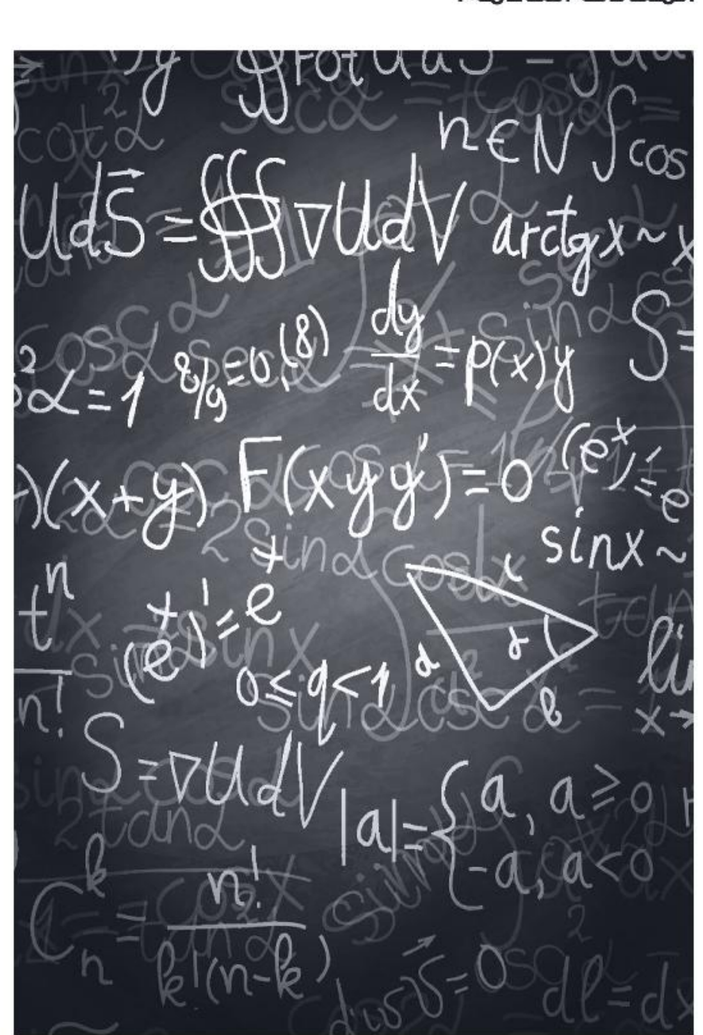
لو نظرنا لطريقة كانط في تحليل السببية ودفع إشكال هيوم المزعج[١٢] فلن تجد إلا كلامًا تجريديًا مُعقدا لإثبات موضوعية السببية بدلا من تفسيرها سيكولوجيًا؛ وستجد أهم ما فيه - وهي الحُجة التي يناقشها الباحثون إلى الآن -: عندما يرى الإنسان شيئا وليكن دارًا ما؛ يستطيع أن يقلب ترتيب الإدراكات الحسية فيلاحظ السطح أولا ثم الدور الأرضي وهكذا، أما حين يدرك حادثة ولنقل مرور سفينة في البحر، فالمظاهر غير قابلة للقلب؛ فليس في وسعي عكس الترتيب...

إذن هذا الترتيب ليس ذاتيًا بل ينتمي للظواهر نفسها لا إلى فهمي لها، ومن ثم ففي إدراك

الحادثة الحسي توجد قاعدة دائمة تجعل ترتيب الإدراكات الحسية ضروريًا.

فالخطأ الهيومي في فهم سببية التفسير بملاحظة متكررة لتتابع ((أ)) و ((ب))، لأننا لن نكون قادرين على أن نتبين المركب ((أ)) ثم ((ب)) (حادثة) في المقام الأول ما لم تكن هناك قاعدة تجعل من الضروري أن يكون ترتيب إدراكاتنا الحسية على هذا النحو وليس على نحو آخر، وباختصار: فإن التجربة عينها لحادثة خارجية قد تقتضي ضمنا من قبل فهمًا للضرورة العلية.[١٣]

وحُجة كانط هذه أخذت حظا وافرًا من النظر والنقد والتفكير[١٤] لكن لا يهمنا لطولها وتعقيدها وعدم جدواها خصوصًا أن الوضعية المنطقية اجتثت الشجرة من أصلها بأكثر منطقية وحدة، فالملجأ اللغوي والتحليل سبيلهم، وأما رد اللغة للارتباط الهيومي عند السلوكيين وتفسيرهم لاكتساب اللغة (والرياضيات كجزء منها) كل هذا سنتعرض له في المقالات القادمة.



المراجع:

(١) د . محمد عابد الجابري، مدخل إلى فلسفة العلوم، ص ٥٨-٥٩.

(٢) المرجع السابق ص ٦٠.

(٣) لن نتكلم في بيان هذا فهو خارج محل البحث لكن نشير إلى أن أكثر العرب لم يوافقوا اليونانيين في الوجود الموضوعي للرياضيات -باستثناء إخوان الصفا مثلا-، لكن للأسف أُعجب أكثر النظار بالمنطق الأرسطي، ويمكن مراجعة عيوب المنطق الأرسطي في كتاب الحد الأرسطي لسلطان العميري، وفي نص شريف لابن تيمية يقول: "العلم الطبيعي وهو العلم بالأجسام الموجودة في الخارج ومبدأ حركاتها وتحولاتها من حال إلى حال وما فيها من الطبائع أشرف من مجرد تصور مقادير مُجردة وأعداد مُجردة، فإن كون الإنسان لا يتصور إلا شكلا مدورًا أو مثلثًا أو مربعًا ولو تصور كل ما في أقليدس أو لا يتصور إلا أعدادًا مجردة ليس فيه علم بموجود في الخارج وليس ذلك كمالا في النفس، ولولا أن ذلك يطلب فيه معرفة المعدودات والمقدرات الخارجية التي هي أجسام وأعراض لما جعل علمًا". الرد على المنطقيين ص ١٣٣.

(٤) رولان أمنيس، فلسفة الكوانتم، ترجمة أحمد فؤاد باشا ويمنى الخولي.

(٥) الجابري، فلسفة العلوم، ص ١٣٦.

(٦) انظر تصدير محمد موسى لترجمته «أصول الرياضيات».

(٧) انظر مقالي؛ أسس العلم التجريبي - العدد الثالث من مجلة براهين.

(٨) كانط، نقد العقل المحض، ترجمة موسي وهبة ص ٤٥ - ٧١.

(٩) عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة؛ ترجمة كانط.

(١٠) جون كوتنجهام، العقلانية، ترجمة محمود الهاشمي، ص ٩٨.

(١١) نفس المرجع ص٩٩.

(١٢) انظر مقالي؛ السببية بين العلم التجريبي والفلسفة - العدد الأول من مجلة براهين.

(١٣) جون كوتنجهام، العقلانية، ترجمة محمود الهاشمي، ص ١٠١.

(١٤) انظر مثلا كتاب Roger Scruton المخصص لهذا وعنوانه Kant: A Very Short Introduction Paperback.

مصطفى قديح

أزلية الكون
«بين العلم والزيف»

- قبل ١٣,٧٩٨ ± ٠,٠٣٧ مليار سنة، حدث ذلك الحدث المحوري (الانفجار العظيم) لتبدأ معه رحلة هذا الكون المعد سلفًا لاستقبالنا.

وقد كانت فكرة أن الكون أزلي -ليس له بداية- تراود خيال البشر منذ العصور القديمة، إلى أن توصل العلماء في العقود المتأخرة إلى نظرية الانفجار الكبير، وبعد سلسلة من الفحوصات النظرية والتجريبية، ثبت لهم أنها أفضل التفسيرات المتاحة. وما زال العلماء حتى الآن من مختلف توجهاتهم الفكرية والدينية لا يعارضون «الانفجار الكبير» ولا يغامرون بالحديث عن ما قبله من ناحية علمية.

ولكن يأبى «الملحد» إلا أن يتحفنا بافتراضات -أقرب للخيال منها للعلم- غريبة، ليحاول إثبات ديانته الإلحادية الغريبة. فنجد بعض الملحدين يسعون للقول بأن «الكون أزلي»، وفي نفس الوقت يحاولون الاستدلال على قولهم بـ «الانفجار الكبير» نفسه.

والقول بأزلية المُتفردة التي عقبها الانفجار، هو قول مبني على غيب مطلق وليس عليه دليل علمي واحد، وذلك لأن ما بعد زمن بلانك (وهو ما يساوي $١٠^{-٤٣}$ ثانية)، هو ما تبدأ عنده قوانين الفيزياء المعروفة في الحُسبان، أما قبله فلا معنى لقوانين الفيزياء لأنه لا مادة ولا طاقة ولا زمان ولا مكان مُحددين.

- ولذلك حُق لنا أن نسأل مَن يزعم أزلية المادة أو تلك المُتفردة: أين كانت توجد؟! إذ أن الزمان والمكان قد وُجِدا بعد زمن بلانك من الانفجار الكبير؟!

- ما يجعلك تعتقد بأزلية المُتفردة لا يجعل هناك فرق بين اعتقادك واعتقاد من آمن بأزلية الخالق سوى في مَن هو الأزلي، فكما أنه لا مشكلة لديك في وجود شيء أزلي ولكن المشكلة لديك في أن يكون خالق عليم حكيم، فإيمانك بأزلية المُتفردة هو إعطاءك صفة هذا الخالق لمادة صماء أو حالة مُتفردة لا يعلم أحد عنها شيئا ولن تطالبك بشيء!!

- فكرة أن الطاقة تحولت لمادة بالصدفة أو العشوائية عن طريق الانفجار الكبير هي فكرة خاطئة بل ومُخالفة للعلم، وذلك لأن الموضوع مُعقد وليس بهذه السهولة التي يتصورها البعض، فلابد مثلا من ترتيب محدد ومنظومة معينة حدثت لهذه الطاقة حتى تتحول إلى مادة، فمبدأ تكافؤ الكتلة والطاقة ليس وحده هو ما يقوم بذلك بل لابد من ضبط مُحكم وحالات محددة حتى تتحول الطاقة إلى مادة وتظل على صورتها التي هي عليها دون غيرها، ولولا وجود هذا النظام الدقيق من جهة الخالق عز وجل لما وُجد الكون.

- بناء على ما سبق؛ فهذا الادعاء المذكور عن أزلية المادة يرفضه العلم، وخصوصا وأنه تخطى أسئلة منطقية أخرى كانت أحرى بالتوقف عندها. مثل؛ مَن الذي أوجد هذه المُتفردة وحدد وقت انفجارها؟ كيف انفجرت؟ وكيف تحولت إلى كوننا المادي بدقة غاية في الاتقان؟ وماذا لو تخلفت سرعة انفجارها بالزيادة أو النقصان بمقدار جزء من مليار المليار جزء من الثانية؟ فهل سيكون للكون أي فرصة في التكون؟ إلى ما غير ذلك من الأسئلة. وهنا يجب أن نفسح المجال أكثر الأدلة شهرة على أن الكون حادث -له بداية- وعلى أن فكرة أزلية المادة ليس لها علاقة بالعلم.

أولا: المواد المشعة:

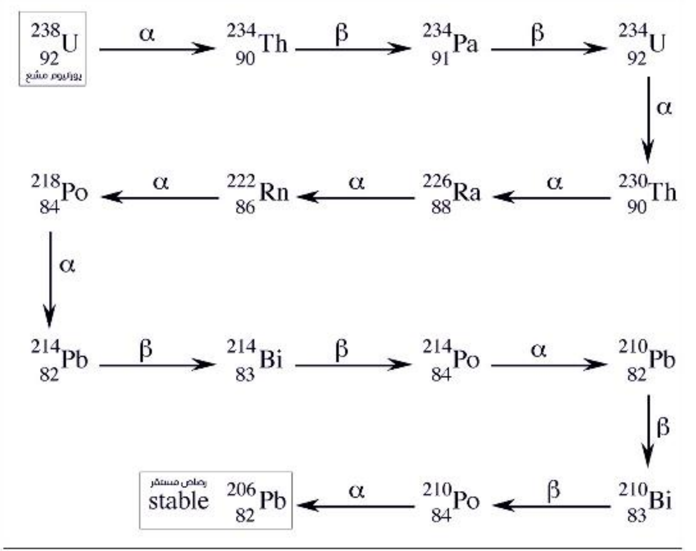
حيث تخبرنا الفيزياء الإشعاعية أن لدينا ثلاث سلاسل إشعاعية طبيعية وهي:

سلسلة اليورانيوم-٢٣٨ وتنتهي بالرصاص-٢٠٦

وسلسلة الثوريوم-٢٣٢ وتنتهي بالرصاص-٢٠٨

وسلسلة اليورانيوم-٢٣٥ أو كما يطلق عليها البعض سلسلة الأكتنيوم وتنتهي بالرصاص-٢٠٧.

ولنأخذ أحد هذه السلاسل كمثال نوضح من خلاله كيف يتم التحلل من عنصر مشع وهو اليورانيوم-٢٣٨ (U) إلى عنصر مستقر وهو الرصاص-٢٠٦ (Pb)



فنجد خلال هذه السلسلة أن اليورانيوم ذو الوزن الذري-٢٣٨ يشع جسيمات ألفا وبيتا حتى يتحول إلى عنصر مشع آخر وهو الراديوم، ثم يشع هذا الأخير أيضًا ويظل يتحلل حتى يتحول في النهاية إلى الرصاص كما في المخطط التوضيحي، ويستغرق مثل ذلك التحلل الإشعاعي وقتا طويلا، حيث يستغرق تحول الراديوم مثلا إلى الرصاص ما يقارب ١٥٩٠ سنة، كما يستغرق تحول اليورانيوم إلى الراديوم أكثر من ذلك..

- ولكن ما الذي يعنيه هذا التحلل من عنصر مشع (غير مستقر) إلى عنصر مستقر؟

هذا يعني أنه في الماضي لم يكن هناك هذا العنصر المشع (اليورانيوم) وبالتالي فهو مادة غير أزلية (أي لها بداية)، لأنه لو كان مادة أزلية لتحولت جميعها إلى الراديوم ثم إلى النحاس منذ زمن بعيد يقارب الأزل أيضًا.. وهذا مستحيل عقلا لأنه ما زال هناك مادة اليورانيوم إلى اليوم.

- وبما أن اليورانيوم ما زال في كوننا هذا، فهو دليل واضح على وجود اليورانيوم وبالتالي استحالة أزلية مادته التي لا تستحدث من مادة أخرى. ولهذا كان على مَن يقول بأزلية المادة أن يشرح لنا من أين جاء اليورانيوم؟ وكذلك المواد المشعة كلها؟!

ثانيا : تصور فيلينكن:

حيث في عام ٢٠٠٣م، درس فريق يضم علماء الفيزياء الثلاثة: فيلينكين Vilenkin وجوث Guth وبورد Borde أثر التوسع الأبدي eternal inflation على ثابت هبل، والذي يصف رياضيًا توسع الكون، وصار لدينا ما يُعرف بتصور فيلينكن وينص على أن كل الأدلة التي نملكها تقول أن للكون بداية.

حيث وجد الباحثون أن المعادلات تفشل في ثابت هبل ولا يمكن تصور زمكان بهذه الخاصية بلا نهاية، يقول فيلينكن Vilenkin: "وتبين أن الثابت له حد أدنى يمنع التضخم الأبدي في كلا اتجاهي

الزمن، وأنه لا يمكن أن يكون أزليًا في الماضي -يقصد التضخم-". ويقول أيضا: "لا بد من وجود نوع ما من الحدود".(١)

ثالثا: القانون الثاني للديناميكا الحرارية:

إن القول بأزلية المادة أيضًا يتعارض مع الأساسيات التي بُني عليها القانونِ الثاني للديناميكا الحرارية، والقانون الثاني للديناميكا الحرارية له أكثر من صيغة، كل منها ترى الواقع من زاوية معينة، ولكنها تتحد جميعًا في المعنى.

فالصيغة الأولى وهي تتضمن انتقال الحرارة: "تنتقل الحرارة من الجسم الساخن إلى الجسم البارد تلقائيا – حيث يستمر هذا الانتقال حتى يحدث اتزان حراري بين الجسمين -ولا يمكن أن تنتقل كمية من الحرارة من جسم بارد إلى جسم ساخن إلا ببذل شغل من الخارج -أي وجود مؤثر خارجي-".

ومن هنا فإذا كانت المادة أزلية والكون ليس له بداية، لكن اتفاقًا مع هذه الصيغة للقانون أن تكونَ كل الطاقات الموجودة في الكون قد تحولت الآن أو انتقلت من الساخن إلى البارد كلها، وفي هذه الحالة فكان المفترض أننا نحيا الآن في حالة اتزان حراري؛ أي أن الكونَ الآن ميت حراريًا Dead Heat ولكن الأمر عكس ذلك تمامًا، إذ الكون الآن لا زال يحتوي على طاقات متوفرة الحرارة العالية، فالشمس التي نراها وغيرها من ملايين النجوم المتوهجة وما تشعه من طاقة، هي من أكبر الأدلة على أن الكون ليس في حالة موت حراري، فالموت الحراري يعني الوصول إلى درجة الصفر المطلق، إذن فالكون ليس أزليًا ولا المادة كذلك، بل لهما نقطة بداية وقد أحدثهما محدث وأوجدهما كما شاء، فهو لا بد مُريد عليم حكيم وعلى كل شيء قدير.

أما عن الصيغة الثانية للقانون فهي تتضمن تحول الطاقة الحرارية إلى شغل: "من المستحيل تحويل الطاقة الحرارية بأكملها إلى شغل بوساطة عملية دورية".

حيث أنه لتحول المُتفردة ذات الطاقة العالية جدا إلى مادة فلابد من بذل شغل عليها، وكما تبين لنا صيغة القانون أنه يستحيل وجود هذا الشغل بعملية دورية!

وهنا نجد السؤال يطرح نفسه تلقائيًا، كيف لطاقة هائلة جدا أن تتحول إلى مادة؟

فلابد أن هناك قوة خارجية أثرت عليها بشغل لتحولها من طاقتها الحرارية إلى المادة، وليست أي قوة! إذ أنها لم تتحول إلى مادة فحسب بل تحولت إلى مادة بطريقة غاية في الدقة تجعل من هذه القوة المؤثرة ذات علم وقدرة وتدبير، وبالتالي فلا اعتبار لأزلية المادة أو الكون ولا صدفيته، فلو كانت الطاقة موجود منذ الأزل كما يقول المُدعي بذلك، فمَن الذى قرر ظهور الكون عند هذه اللحظة الفريدة دون غيرها؟ ومَن الذى تدخل عند هذه النقطة بالذات لتقوم الطاقة بالفعل والإيجاد للمادة؟

وأما عن الصيغة الثالثة للقانون وهي تتضمن إنتروبيا النظام فسنتحدث عنها في مقال العدد القادم بإذن الله..

رابعًا: حجم الكون:

ليكون الكون أزليًا فلابد أن يكون حجمُه لا نهائي Infinite، أي يمتد حجمه من سالب ما لا نهاية إلى موجب ما لا نهاية (أي ليس له حدود)، وبحيث لا نستطيع تحديد نقطة بداية له أو نقطة نهاية -وكما تخبرنا الرياضيات-، إلا أن النظريات العلمية الحديثة تخبرنا بعكس ذلك كما رأينا آنفا، فنظرية الانفجار الكبير تشير إلى أن الكونَ في توسُّع مستمر، مما يعني أننا بالعودة إلى الوراء سنصل إلى نقطة البداية له وهي أصغر ما يكون، كما أنَ نظريات علم الفلك الحديث تثبت نظريًا محدودية حجم الكون والمجرات الكونية، مما يعني أن الكون يمكن نظريًا تصور حدوده، وهو ما يثبت وجود نقطة نهاية له وبعكس الافتراض القائل بوجود أزليته. فالانفجار الكبير جعل الملاحدة في غاية الحرج، وبهذا نجد أدلة واضحة صريحة على بداية الكون ونفي أزليته.

المراجع:

(1) A. Borde, A. Guth and A. Vilenkin, Inflationary space-times are not past-complete, Phys. Rev. Lett. 90 151301 (2003), pg. 1



الجزء الأول

غادة

تتخبط الأرواح في ظلمات التيه، ويطوق خناقها طوفان الشك، فتكبلها موجات التزعزع، تجدها أقامت ردحا من الزمن في دهاليز الظلمة والشك ينخر في فطرتها، يزيدها ضلالا وضياعا، كبرا وجهلا، وكانت دعوى تحرر العقل وتنويره هي البوابات الكبرى لولوج هذا الكهف المظلم..

وما تلبث الأرواح التي تبحث عن الحقيقة بصدق أن ترجع إلى ميدان الضياء، وفسحة الأمل، وراحة البال وهناءه، وتوفيق الله كان لها حليفا.

هنا تنطلق الفطرة السوية وتتحرر مما يكبلها، فالفطرة الصافية المتحررة من كل زيغ وبهتان، تسلم بوجود الله وأنه هو الخالق لهذا العالم، والمالك لهذا الوجود بلا منازع.

من هذه النماذج التي أقامت تحت طوفان الشك وأقلقتها الحيرة وبددت استقرارها فبدى صوت العقل في مسيرتها لحوحا حتى جرفها في وحل الضياع، الدكتور "مصطفى محمود".

فقد بدأ هذا الداء ينخر في نفسه في سن مبكرة، وأصبح يقض مضجعه ولعلنا في هذه السطور نقف على شيء من محطات رحلته، ونسلط الضوء على بعض التحولات التي مر بها في مسيرته، ونستعرض كلماته التي عبر بها عن ذاته في كل مرحلة من هذه الرحلة...

يقول مصطفى محمود في كتابه (رحلتي من الشك إلى الإيمان): "كان ذلك من زمن بعيد لست أذكره.. ربما كنت أدرج من الثالثة عشرة إلى الرابعة عشرة وربما قبل ذلك.. في مطالع المراهقة.. حينما بدأت أتساءل في تمرد: تقولون إن الله خلق الدنيا لأنه لا بد لكل مخلوق من خالق ولا بد لكل صنعة من صانع ولا بد لكل موجود من موجد.. صدقنا وآمنا.. فلتقولوا لي إذن من خلق الله.. أم أنه جاء بذاته.. فإذا كان قد جاء بذاته وصح في تصوركم أن يتم هذا الأمر.. فلماذا لا يصح في تصوركم أيضا أن الدنيا جاءت بذاتها بلا خالق وينتهي الإشكال...".

وبالطبع كلما توغل الإنسان وتعمق في نظرته إلى الكون لتظهر له الصفات الواجب توفرها في هذا الأزلي الذي ليس قبله شيء: أدرك بأقل نظر وإعمال عقل أنه حكيم قدير عليم له إرادة خاصة ومشيئة حرة، وهو أبعد ما يكون عن كون أصم لا حياة فيه ولا حرية تصرف في مادته التي نخضعها في معاملنا ليل نهار من غير أن تعترض!

ويحكي مصطفى محمود خطواته الأولى في هذا الطريق، ويظهر حقيقة تسيطر على من يمضي فيه، بأن السائر في هذا الطريق ليس بالضرورة يبحث عن الحقيقة، فقد يكون تقلبه في هذا الوحل واستمراره في هذا التيه إنما هو نابع عن اعتداد بالنفس وكبر فيها، يقول مصطفى محمود واصفا هذه المرحلة من حياته، وزهوه في عقله: "إن زهوي بعقلي الذي بدأ يتفتح وإعجابي بموهبة الكلام ومقارعة الحجج التي انفردت بها.. كان هو الحافز دائما.. وكان هو المشجع.. وكان هو الدافع.. وليس البحث عن الحقيقة ولا كشف الصواب.

لقد رفضت عبادة الله لأني استغرقت في عبادة نفسي وأعجبت بومضة النور التي بدأت تومض في فكري مع انفتاح الوعي وبداية الصحوة من مهد الطفولة".

ويصف مصطفى محمود مزلقا خطيرا يقذف بالإنسان في الهوة، ويغرقه في مستنقع الوحل من حيث لا يشعر، إنها نظرة التبجيل والإكبار الزائد للغرب، ونظرة التخلف والدونية للعرب فيقول حاكيا نظرته ومن سار على طريقه: " كان الغرب هو التقدم، وكان الشرق العربي هو التخلف والضعف والتخاذل والانهيار تحت أقدام

الاستعمار، وكان طبيعيّاً أن نتصور أن كل ما يأتينا من الغرب هو النور والحق.. وهو السبيل إلى القوة والخلاص".

ومن ثم مضى مصطفى محمود يبحث عن راحة نفسه واستقرارها لما رأى أنها مضمحلة في هذا العالم الذي يعيشه، فظل يبحث عن مخرج تأنس به روحه وتستقر، فتشبث بوميض رأى أن فيه خلاصًا لنفسه، حيث يقول حاكيًا رحلته في أحد السراديب وهو يتلمس نور الحقيقة: "وعشت سنوات في هذا الضباب الهندي وهذه الماريجوانا الصوفية ومارست اليوجا وقرأتها في أصولها، وتلقيت تعاليمها على أيدي أساتذة هنود، وسيطرت عليّ فكرة التناسخ مدة طويلة، وظهرت روايات لي مثل العنكبوت والخروج من التابوت، ثم بدأت أفيق على حالة من عدم الرضا وعدم الاقتناع، واعترفت بيني وبين نفسي أن هذه الفكرة عن الله فيها الكثير من الخلط، ومرة أخرى كان العلم هو دليلي ومُنقذي ومُرشدي".

وفي سراديب العيش في وحدة الوجود الهندية حيث كانت طريق امتد إلى نهاية هلامية لا تسمن ولا تغني من جوع، ولا تمنح راحة ولا قرارًا وإنما زيادة تيه على تيه، وضياع على ضياع، فلم يلبث أن وعى أنه أقحم نفسه في سراديب مظلمة.

وبعد تجليات ومسارات متعددة في حياته من تمجيد للعقل، وخوض في الفلسفات المتنطعة كوحدة الوجود الهندية، وتشعبات وطرق متداخلة، وشد وجذب مع النفس وصل أقصى حدوده، استقرت نفس مصطفى محمود على الحقيقة الكبرى، واطمأنت إلى الحقيقة العظمى، وأدركت أنها هي الطريق الصحيح الوحيد، فالدنيا مرحلة مؤقتة تليها الحياة الكبرى، فالبعث والنشور حقيقة لا مرية فيها ولا جدال بعد هذه الرحلة الطويلة، فها هو يصف الدنيا بعد أن استقر نور الحقيقة في قلبه: "إن دنيانا هي فترة موضوعة بين قوسين بالنسبة لما بعدها وما قبلها، وهي ليست كل الحقيقة ولا كل القصة.. وإنما هي فصل صغير من رواية سوف تتعدد فصولاً، وقد أدرك الإنسان حقيقة البعث بالفطرة، أدركها الإنسان البدائي، وقال بها الأنبياء أخباراً عن الغيب، وقال بها العقل والعلم الذي أدرك أن الإنسان جسد وروح...".

ويعلن مصطفى أن الفطرة السوية التي خلقها الله في القلوب بيضاء نقية لم يشبها الغبش ولم تلونها الفلسفات المتنطعة، هي من أعظم الطرق لبلوغ التوحيد الصحيح، وإن الإسراف في تتويج العقل وجعله هو المحرك لحياة الإنسان، لا حدود إلا ما يرسمها، ولا ضوابط إلا ما يقيمها لهو الهوّة العظمى في طريق الصواب يبتلع كل ما يمر عليه.

يقول مصطفى محمود في هذا الشأن حاكياً مشواره الذي تقلب فيه سنيناً من عمره ووجع الضياع يفتك به ويسلبه الأمان: "واحتاج الأمر إلى ثلاثين سنة من الغرق في الكتب وآلاف الليالي من الخلوة والتأمل والحوار مع النفس وإعادة النظر ثم إعادة النظر في إعادة النظر.. ثم تقليب الفكر على كل وجه لأقطع فيه الطريق الشائكة من الله والإنسان إلى لغز الحياة إلى لغز الموت إلى ما أكتب من كلمات على درب اليقين.

لم يكن الأمر سهلاً.. لأني لم أشأ أن آخذ الأمر مأخذاً سهلاً، ولو أني أصغيت إلى صوت الفطرة وتركت البداهة تقودني لأعفيت نفسي من عناء الجدل.. ولقادتني الفطرة إلى الله.. ولكنني جئت في زمن تعقد فيه كل شيء وضعف صوت الفطرة حتى صار همسًا، وارتفع صوت العقل حتى صار لجاجة وغرورًا واعتدادًا.. والعقل معذور في إسرافه إذ يرى نفسه واقفاً على هرم هائل من المنجزات.. فتصور نفسه القادر على كل شيء وزج نفسه في كل شيء وأقام نفسه حاكمًا على ما يعلم وما لا يعلم".

وسبحان مَن يغير القلوب ويهدي مَن يشاء إلى صراط مستقيم، فقد كان مصطفى محمود يحارب الدين بالعلم، ويقارعه بالفلسفة، وحين انبثقت الفطرة السوية وزال عنها الغبش فها هو يقول: "إن الله الخالق العادل الملهم الذي خلق مخلوقاته وألهمها الطريق.. هو مبدأ أولي يصل إليه العقل دون إجهاد. وتوحي به الفطرة بداهة، وإنما الافتعال كل الافتعال.. هو القول بغير ذلك، والإنكار يحتاج إلى الجهد كل الجهد وإلى الالتفاف والدوران واللجاجة والجدل العقيم ثم نهايته إلى التهافت.. لأنه لا يقوم على أساس.. ولأنه يدخل في باب المكابرة والعناد أكثر مما يدخل في باب التأمل المحايد النزيه والفطرة السوية، وهذا ما

قالته لي رحلتي الفكرية الطويلة.. من بدايتها المزهوة في كتاب ((الله والإنسان)) إلى وقفتها الخاشعة على أبواب القرآن والتوراة والإنجيل".

وفي هذا الطريق هناك العديد من الشبه التي تغذي السير فيه، وتزرع التذبذب، بدت لمصطفى محمود في رحلته، وبعد أن تجلت أنوار الحقيقة إذ هو ينقض هذه المزاعم ويفندها.

فها هو يبطل دعامة من أكبر دعائم هذا الطريق، وجسر عبره الكثيرون للوصول إلى هذه المرحلة من الشك والإلحاد، إنه القول بـ"أزلية الوجود" والفلسفات المنطوية على هذا المعنى، فيقول: "أما القول بأزلية الوجود لأن العدم معدوم والوجود موجود، فهو جدل لفظي لا يقوم إلا على اللعب بالألفاظ، والعدم في واقع الأمر غير معدوم، وقيام العدم في التصور والفكر ينفي كونه معدوماً.. ويقول: "ولو كان الكون أزليًا بدون ابتداء لكان التبادل الحراري قد توقف في تلك الآباد الطويلة المتاحة وبالتالي لتوقفت كل صور الحياة.. ولبردت النجوم وصارت بدرجة حرارة الصقيع والخواء حولها وانتهى كلّ شيء، إن هذا القانون هو ذاته دليل على أن الكون كان له بدء".

ومن الشبه التي تثار كثيرًا ويتعلق بها السائرون في غياهب الإلحاد والشك، وينثرونها لتعزز اتجاههم وتدعم موقفهم ويظهرون أنهم على الحق هي: لماذا العذاب؟!

وها هو الدكتور مصطفى محمود يحكي من خلال رحلته نظرته لهذا الجانب: "المثقفون لهم اعتراض تقليدي على مسألة البعث والعقاب، فهم يقولون: كيف يعذبنا الله والله محبة ؟ و ينسى الواحد منهم أنه قد يحب ابنه كل الحب ومع ذلك يعاقبه بالضرب والحرمان من المصروف والتأديب والتعنيف.. وكلما ازداد حبه لابنه كلما ازداد اهتمامه بتأديبه.. ولو أنه تهاون في تربيته لاتّهمه الناس في حبه لابنه ولقالوا عنه إنه أب مهمل لا يرعى أبناءه الرعاية الكافية.. فما بال الرب وهو المربي الأعظم.. وكلمة الرب مشتقة من التربية، والواقع أن عبارة ((الله محبة)) عبارة فضفاضة يسيء الكثيرون فهمها ويحملونها معنىً مطلقاً.. ويتصورون أن الله محبة على الإطلاق.. وهذا غير صحيح، فهل الله يحب الظلم مثلاً؟ مستحيل.. مستحيل أن يحب الله الظلم والظالمين.. وأن يستوي في نظره ظالم ومظلم".

والصدفة من أهم مرتكزات الفكر الإلحادي التي يُفسر وجود العالم بها وأن هذا العالم هو نتاج للصدفة، ثم بسلسلة من المصادفات تسير الحياة.

وها هو مصطفى محمود بعد أن أبصر نور الحقيقة، وعلم أن هذا الكلام لا يقبله عاقل، ولم يبن على علم صحيح، فهو يصف مظاهر الحياة والنظام البديع فيها، ويتساءل كيف يكون سيرها بهذا النظام والإحكام والدقة صدفة؟!

فيقول: "وإذا سلمنا بصدفة واحدة في البداية، فكيف يقبل العقل سلسلة متلاحقة من المصادفات والخبطات العشوائية، إنها السذاجة بعينها التي لا تحدث إلا في الأفلام الهزلية الرخيصة؟".

ومما يتشدق به المتعلقون بهذا الوهم أن وجود الإله ينافي العلم، وأن العلم ينافي المحسوسات فأين الله حتى نؤمن به؟!

فيقول مصطفى محمود نافياً هذا الزعم ومبطلاً هذه الفرية: "إن نصف العلم الآن أصبح غيباً، العلم يلاحظ ويدون الملاحظات.. ثم يقول: نحن في عصر العلم الغيبي.. والضرب في متاهات الفروض، وليس للعلم الآن أن يحتج على الغيبيات بعد أن غرق إلى أذنيه في الغيبيات، وأولى بنا أن نؤمن بعالم الغيب. خالقنا البر الكريم. الذي نرى آثاره في كل لمحة عين وكل نبضة قلب وكل سبحة تأمل، هذا أمر أولى بنا من الغرق في الفروض".

وهو يسير هنا إلى ما وصل إليه العلم من الحديث عن عالم الذرة وجسيمات ما دون الذرة والتي يستدل عليها بآثارها وكتلتها وسلوكياتها وهو لم يرها بعينه قط !! ويذكر مصطفى محمود أن العلم الحقيقي لم يكن يوما مناقضاً للدين، وأن السبب في وقوع الشبهات هو القصور في العلم والاعتداد بالعقل: "إن العلم الحق لم يكن أبدًا مناقضًا للدين بل إنه دال عليه مؤكد بمعناه، وإنما (نصف العلم) هو الذي يوقع العقل في الشبهة والشك.. وبخاصة إن كان ذلك العقل مزهوًا بنفسه معتدًا بعقلانيته.. وبخاصة إذا دارت المعركة في عصر يتصور فيه العقل أنه كلّ شيء.. وإذا حاصرت

الإنسان شواهد حضارة ماديّة صارخة تزأر فيها الطائرات وسفن الفضاء والأقمار الصناعيّة.. هاتفةً كلّ لحظة، أنا المادة، أنا كل شيء ".

ويحكي مصطفى محمود حقيقة عظمى وهي: "لا تعارض بين الدين والعلم، لأن الدين في ذاته مُنتهى العلم المشتمل بالضرورة على جميع لعلوم، والدين ضروري ومطلوب لأنه هو الذي يرسم للعلوم الصغيرة غاياتها وأهدافها ويضع لها وظائفها السليمة في إطار الحياة المثلى، الدين هو الذي يقيم الضمير، والضمير بدوره يختار للطاقة الذرية وظيفة بناءة.. ولا يلقى بها دماراً وموتاً على الأبرياء".

إن العقل -ومهما بلغ مبلغه في الإنسان- إذا نأى بصاحبه عن الطريق المستقيم فلن يجد في قلبه مستراحًا، فسبحان مقلب القلوب، فحينما أراد اللّه لمصطفى محمود سلوك الطريق المستقيم، صار يتعجب ممَن يطلب برهاناً لوجود اللّه رغم أن هذا كان شأنه في بداية طريقه، ولكن بعد أن تجلت له أنوار الهداية أصبح يقول وبكل ثقة: "والعجب كل العجب لمَن يسألنا عن برهان على وجود اللّه.. على وجود الحق.. وهو نازع إليه بكليته مشغوف به بجماع قلبه، وكيف يكون موضع شك مَن هو مَطلب كل القلوب ومَهوى جميع الأفئدة وهدف جميع البصائر؟ كيف نشك في وجوده وهو مستول على كل مشاعرنا؟ كيف نشك في الحق ونطلب عليه دليلاً من الباطل؟ كيف ننزلق مع المنطق المراوغ إلى هذه الدرجة من التناقض فنجعل مِن لب الوجود وحقيقة حقائقه محل سؤال؟ إني لا أجد نصيحة أثمن من أن أقول: ليعُد كل منا إلى فطرته.. ليعُد إلى بكارته وعذريته التي لم تدنسها لفلفات المنطق ومراوغات العقل، ليعُد كل منا إلى قلبه في ساعة خلوة، وليسأل قلبه، وسوف يدله قلبه على كل شيء، فقد أودع اللّه في قلوبنا تلك البوصلة التي لا تخطئ.. والتي اسمها الفطرة والبداهة، وهي فطرة لا تقبل التبديل ولا التشويه (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)".

ونختم هذه الرحلة بعبارات جميلة نابعة من قلب أرهقته الرحلة فاستقر أخيراً، فها هو مصطفى محمود يحكي العلاقة بين الخلق والخالق، يحكي الصلة بين اللّه سبحانه وتعالى وبين مخلوقاته وتعامله معها فيقول: "والصلة دائمًا معقودة بين هذا الخالق ومخلوقاته فهو أقرب إليها من دمها الذي يجري فيها، وهو المبدع الذي أظهر الإبداع في هذه المعزوفة الكونية الرائعة، وهو العادل الذي أحكم قوانينها وأقامها على نواميس دقيقة لا تخطئ، وهكذا قدم لي العلم الفكرة الإسلامية الكاملة عن اللّه".

المراجع:

- كتاب رحلتي من الشك إلى الإيمان – دكتور مصطفى محمود طبعة دار المعارف المصرية.
- كتاب حوار مع صديقي الملحد – دكتور مصطفى محمود طبعة دار المعارف المصرية.



My name is iPhone 6

and I don't believe in Steve Jobs!

قصة الآيفون الملحد مع ستيف جوبز

youtu.be/Bd4-OSa9FH8





القرآن وجذور الإلحاد

جميل أبو العباس
أستاذ مساعد بكلية الآداب جامعة المنيا

لا تستطيع أن تنكر أن فكرة الصراع بين الإيمان والكفر-الذي يدخل في عباءته الإلحاد- لم تكن وليدة العصر الحديث، وإن كانت قد تفاقمت حدة هذا الصراع في عصرنا الحالي، فجذورها متأصلة منذ فجر التاريخ؛ وعزوف "إبليس" عن السجود لـ"آدم" ﵇ بعد أن أمره الله بذلك، لم يكن إلا نقطة بداية...

لا تستطيع أن تنكر أن فكرة الصراع بين الإيمان والكفر -الذي يدخل في عباءته الإلحاد- لم تكن وليدة العصر الحديث، وإن كانت قد تفاقمت حدة هذا الصراع في عصرنا الحالي، فجذورها متأصلة منذ فجر التاريخ؛ وعزوف "إبليس" عن السجود لـ"آدم" ﵇ بعد أن أمره الله بذلك إلا نقطة بداية.

وعلى هذا، أضحى العالم في عمومه، وعالمنا العربي المعاصر على وجه الخصوص، يعيش في حالة من الاضطراب والصراع بين قضيتي الإيمان والكفر، أو الحق والباطل، أو الخير والشر. وقد ارتبط كل مفهوم من هذه المفاهيم بالآخر، حيث أصبح لا يمكن الحديث عن أحدهما دون الآخر، حتى لم يعد من تمام الأمر الحديث عن الإيمان في غياب الكفر، بشكل أو بآخر.

ونظرًا لأن قضية الإلحاد في عصرنا هذا أصبحت شائكة، بل ومثيرة إلى حد كبير، وذلك مرجعُه إلى عدة أسباب، من بينها المفاهيم المتعددة لمعنى الإلحاد، ومن ثم اختلاف صوره واتجاهاته ومذاهبه وفلسفاته، وبالتالي اختلاف أتباعه فيما بينهم، ومن ثم تعقد مشكلة الإلحاد ذاتها، ناهيك عن أن تلك القضية قد انتابها الكثير من الغموض والأغاليط والخلط بين موضوعات متعددة ومتشعبة، فكان لزامًا أن نبحث عن جذور المشكلة ثم نعود إلى كتاب الله لمعرفة العلاج.

- بين الغيب والمادة:

إذا كان القرآن الكريم يدعونا للإيمان بالغيب، إلا أنه سبحانه يعلم أن النفس البشرية التي خلقها تميل لما هو حسي ومادي، فقدم لنا -في القرآن- الكثير من الشواهد الحسية والتجريبية، التي تعضد من إيمان العبد بربه، فأمرنا بداية بالنظر والتفكر في الكون من حولنا "أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى" [الروم : ٨]، "قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ" [العنكبوت : ٢٠]، بل ووعد عز وجل بإظهار هذه الآيات حتى لا يبقى حجة لأحد إلا العناد والاستكبار "سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ" [فصلت : ٥٣].

ويقول الحق سبحانه: "وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ" [فاطر: ٩]، وفي هذه الآية الكريمة يريد الحق أن ينقلنا من عالم الغيب إلى عالم الشهادة حتى تطمئن قلوبنا.

فنجد أنه كما أمرنا -سبحانه- بالإيمان به وبكتبه ورسله والملائكة والجنة والنار، وهو الإيمان بالغيب، إلا أنه بين لنا -جل شأنه- الشواهد الحسية والمادية؛ من خلق أنفسنا وخلق السماوات والأرض، والتي تؤكد وجود الخالق والصانع لكل هذه المخلوقات من حولنا، وهو ما أسميه دليل الإثبات المادي لوجود الله سبحانه وتعالى.

- الشهوات والشبهات:

في حقيقة الأمر، لا تخرج صفات الملحدين عن أمرين: أولاهما، اتباع الشهوات. والأخرى، اتباع الشبهات. فأما اتباع الشهوات، فهي تلك الصفة التي تهدم كل ما هو فطري يستقيم والحياة الإنسانية، بل ولا تبني عقيدة صحيحة، ولا علمًا ولا فكرًا سليما. وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: "أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (٢٧)". [الجاثية: ٢٣-٢٧]

هنا نلاحظ أن الله تعالى قد ذكر أصحاب الهوى، وكيف أنهم اتخذوا الهوى إلهًا يُعبد من دونه، ثم يبين أنه سبحانه هداهم لطريق الحق فلم يهتدوا، وضلّوا وهم على علم في قرارة أنفسهم أنهم كاذبون. لذا فنجد كثيرًا من الملحدين من العلماء والمثقفين، ولكنهم خالفوا الفطرة السوية فضلّوا عن طريق الحق، فختم الله على سمعهم فلا يسمعون كلامه، وختم على قلوبهم فلا يعقلون من القرآن إعجازه وبيانه، وعمُوا عن الحق فلا يرون نوره وسراجه.

ثم يختم الآية الكريمة بقوله: "فمن يهديه من بعد الله" والتي توضح أن هذا الملحد متبع الهوى طالما أنه قد اختار طريق الهوى فلن يجد طريق الهداية إلا إن عاد من طريقه هذا.

أما اتباع الشبهات، فتراهم يحاولون أن يضربوا بعض الآيات ببعضها فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وهذا ما يفعله الكثيرون من الملحدين العرب. وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة واصفًا أولئك الملحدين بأنهم يتبعون (الظن) ولا يوجد دليلٌ علميٌّ واحد يثبت صدق ما يقولون وذلك في قوله: "وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ" [ص: ٢٧]، وهذا الظن في نكرانهم لخلق السماوات والأرض يتعدى إلى ظنون أخرى، كنظرية التطور التي يتشدقون بها، وهي لا تفسر نشأة الحياة ولا نشأة الخلية الحية الأولى ولا نشأة الأنواع، فالأمر ظن وتخمين فحسب..

إن ما يدحض شبهات هؤلاء الملحدين في إنكارهم لقضية الخالق والخلق جاء في قوله سبحانه وتعالى: "أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦)". [الطور: ٣٥ - ٣٦]

يقول ابن كثير في تفسير الآية: "هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الإلوهية، فقال تعالى: (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) أي: أوجدوا من غير موجد؟ أم هم أوجدوا أنفسهم؟ أي: لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا".

وهذا السؤال سيظل بلا إجابة يقينية لدى الملحدين، وأفضل ما لديهم هو التهرب منه. وعلى هذا يتضح أنه مهما قالوا ومهما زعموا فإن أقوالهم مردودة عليهم وأدلتهم على نكران وجود الله واهية ولا أساس لها، فكل ذي فطرة سليمة يقرُّ ويعترف بوجود الخالق سبحانه وتعالى.

- العناد والاستكبار:

أيضا من أهم صفات الملحدين، نكرانهم لآيات الله عز وجل، وكفرهم بها حتى قبل أن يستمعوا إليها، وقبل أن يتفكروا فيها، وهذا هو حالهم. تجده لا يريد أن يستمع إليك ولسان حاله يقول: عليك أن تنصت إليَّ، فأنا وأنا فقط كلامي هو الحق وما دونه باطل حتى لو كان من عند الله.

هذا بالإضافة إلى استخدام الملحد لأسلوب المراوغة -وهي صفة نجدها في كثير من الملحدين- فالله يطلب منهم أن يستمعوا للآيات ويتفكروا فيها، فيخرجون عن القضية إلى قضية أخرى، وهي مطالبتهم بإحياء آبائهم، ويرد عليهم القرآن في موضع آخر من آيات الذكر الحكيم بقوله سبحانه وتعالى: "وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠)" [فصلت: ٣٩ - ٤٠]، وهذا دليل عملي من الله سبحانه وتعالى لأولئك الملحدين يدحض من خلاله حججهم الواهية بطريقة حسية، فيأخذهم من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، وكأنه سبحانه أراد أن يقول لهم ألم تكن هذه الأرض الميتة التي لا زرع فيها ولا نبات ثم نزل عليها الماء فأصبحت حية ألم تكن آية كبرى من آيات الله، ألم تكن دليلًا على أنه سبحانه وتعالى قادر على كل شيء.

- موقف الملحد من الإسلام:

إن أخطر ما وقع فيه الملحدون هو وضعهم للأديان جميعها في بوتقة واحدة، وهذا جور عظيم. فإذا كان الملحدون في الغرب لم يجدوا في المسيحية ما يتفق وطبيعتهم الفطرية السليمة، ذلك لأنها لا تُلبي رغبات الإنسان العاقل صاحب الفطرة السوية، بل والأسوأ من ذلك ما وجدوه فيها من انتهاكات صارخة لقضية الإلوهية وخاصة في عقيدة التثليث. الأمر الذي جعل الإنسان الغربي في حيرة وتخبط؛ إما أن يختار عقيدة تنافي العقل والفطرة وعليه أن يخضع لها دون أن يتفوه بكلمة، أو أن يختار الإلحاد بديلًا عن هذا الدين.

إن الأمر يزداد خطورة حين نرى في بلادنا الشرقية والعربية تبني ملحدي العرب لأفكار ملحدي الغرب وتقليدهم تقليدًا أعمى -بالإضافة إلى أفعال بعض المسلمين التي تسيء إلى الإسلام ولا تمثله بأي شكل من الأشكال-، الأمر الذي أدى في النهاية إلى جعلهم يخلعون على الإسلام كل الصفات المنافية للفطرة السليمة التي كان قد خلعها ملحدو الغرب على المسيحية، وبذلك وقع ملحدو الشرق في فخِّ قياس الغائب على الشاهد، دون أن يدرسوا الإسلام ويتفهموا معانيه السامية الراقية، وكيف أنه بحق دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

- الخاتمة:

إنه حقا شيء مثيرٌ أن يتناول القرآن جذور قضية الإلحاد المعاصر منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة. لقد تناول القرآن أشكال الطمس والانحراف المختلفة التي يمكن أن تصيب الفطرة الإنسانية، ووجه الدعوة إلى العقول للتفكر والتدبر والتأمل وإعادة النظر في المادة والروح والغيب، الأمر الذي يحتاج من الملاحدة إلى المزيد من إعادة النظر والقليل من التأني.





تحدث لي اضطرابات في القولون العصبي بمجرد الاطلاع على مقال صحفي يرصد أعداد الملحدين في العالم العربي!

هذه قضية غامضة جدًا تحتاج لاستقراء كامل لسنوات طويلة ومتابعة عن قرب للملحدين وأنشطتهم، ولا يصلح مقال صحفي يتفرغ كاتبه لساعات قليلة أو حتى لأيام أن يعطينا فيه رأيًا!

ولا يصح إطلاقًا بنفس الحجة طرق الإحصاء السطحية التي تجريها بعض المراكز البحثية العربية منها أو الغربية، هذا الأمر قد يجدي نفعًا في تقصي ظاهرة غير مُركبة مثل نسبة المشتركين في أفران الخبز أو ترجيح شعبية فريق كرة قدم على فريق آخر!

أما ظاهرة مُركبة متشابكة مثل الظاهرة الإلحادية فيحتاج رصدها إلى المتخصصين في هذا الباب من الطرفين مع قدر مُعتبر من الإنصاف والترصد الجيد.

فالظاهرة الإلحادية هي ظاهرة تكاد تكون حصرية بالشبكة العنكبوتية حيث يغلب على دعاتها المنحى التبشيري، فتجد للملحد حسابًا -أو أكثر- على الفيس بوك، ومثله - أو أكثر أيضا - على تويتر، وثالثا مختلفا على اليوتيوب وهكذا، وتجده يكتب في المنتديات الإسلامية ويرسم الكاريكاتيرات الساخرة، ويترجم أعمالًا وثائقية يستخدمها فيما بعد في أعماله التكريزية -التبشيرية- وفوق هذا كله لا يمل من التأكيد على أن إلحاده ليس دين ولا هو منشغل بالتبشير بإلحاده، بل يؤكد لك بهدوء شديد أن الدين للبسطاء أفضل لهم لأنه يحفظ لهم أخلاقهم!!

وبعد كل ذلك تجد نفس هذا الملحد يحضر الجُمعات ويصوم رمضان -في الظاهر- ويُصلي على النبي إذا ذُكر اسمه أمامه، فيتحول مع الوقت إلى ملحد مرتد على الشبكة العنكبوتية، ومنافق من أزمنة كفار الجاهلية في حياته العادية.

وأغلب من يتشح بزي الإلحاد هم شباب صغار بين ١٥ - ٢٢ سنة يفرحون بمصطلحات أجنبية وأسماء غربية يرطنها الملحد الكبير أمامهم ليل نهار، وهذا الملحد الكبير-أو الكاهن-؛ هو ذلك الشخص الذي يقيم -في الغالب- بدولة غربية، ارتكب فيها كل الكبائر وترك كل الفرائض قبل أن يقرر ترك الإسلام بحجة أنه وجد فيه "شبهات"، والواقع أنه كان يكتشف أنه مسلم كلما سمع الأذان أو راسله بعض أقاربه ببعض الكتيبات الدينية أو النصائح الدعوية للمغتربين!!

فأنت أمام ظاهرة مُعقدة متشابكة لا يصلح فيها الرصد السطحي، فلن تحصل معه على نتيجة مُرضية!

وإذا ناقشت أحد هؤلاء الشباب الصغار في مسألة من المسائل التي دعته إلى الإلحاد فإنك في الغالب تجد أنها مسائل فوق السطحية وجزئيات لا يستقيم في مجموعها دليل مستقل له فضلاً عن آحادها، وأذكر أن أحدهم أخبرني أن مشكلته مع الإسلام هي في ضرب الوزغ، تخيل يلحد ويكفر بأن للكون صانع ويضع الفروض المستحيلة لتستقيم له دعواه الجديدة لأنه لا يتقبل مسألة ضرب الوزغ، مع أنه بالتحليل المادي لا فرق بين جزيئات الوزغ وجزيئات النعل الذي تضرب به الوزغ إلا بعض الضغط والحرارة التي تكفل بعض التغيير في التركيب الذري لجزيئات الوزغ والنعل، ولن يكون لحجة هذا الملحد معنى إلا لو افترضنا أن لحياة الوزغ معنىً آخر مستقلا عن المعنى المادي، وبالتالي يكتسب الوزغ قيمة ومعنى تفوق قيمة المادة المجردة، لكن إذا اعترف الملحد بهذه المقدمة فقد انهار إلحاده بشبهته، حيث ستصبح للحياة استمداد من عالم آخر يعطيها القيمة ويعطيها المعنى ويعطي لكل مَن بُثت فيه نوع من الحرمة، ويعطي الملحد الحجة لينتقد ضرب الوزغ ونزع الحياة منه، بينما لو كنا أبناء هذا العالم المادي ولو كان الإلحاد صحيحًا فلن يكون في هذا العالم شيء له حرمة أو قداسة أو نجاسة فهذه مصطلحات من عالم آخر، إذن لو كان الإلحاد صحيحًا فلن يكون للشبهة معنىً ولن يستوعب الملحد حرمة الوزغ، فالتحليل المادي لا يستقدم قيمة من خارجه، فلا شيء خارجه سوى المادة، وبالتالي لا تختلف إبادة حضارة بأكملها بقنبلة ذرية عن صهر بعض العناصر داخل فرن أحد النجوم، ومن البديهي أن كل إنسان يعلم أن للحياة معنى، ويعلم أن قتل كل حي هو نزع شيء مقدس منه وله حرمة، فهذا علم اضطراري فطري – أو صبغة – يعلمها كلٌ منّا ولا تنفك عن الإنسان حتى ولو ألحد، وهذا يعني أن معنى حياة الإنسان ليس في هذا العالم ولا يستمد القيمة من هذا العالم الذي تقوده حتميات صارمة لا معنى لها في داخلها ولا تعطي قيمة أو معيارية خلقية مهما زاد تعقيدها.

المهم أنك داخل أتون نقد أصول الإلحاد هذه يفاجئك الشاب الصغير بدراسة علمية حديثة لأحد المراكز البحثية الغربية، وتستطيع أن تجزم أن هذا الشاب الصغير لم يفهم منها شيئًا ولا يتقن من الإنجليزية إلا المستوى الذي وصل له من الكتاب المدرسي، لكن (كهنة الإلحاد) أخبروه أن هذا الرابط للدراسة العلمية يرد على مسألة (لا مادية الأخلاق) أو مسألة (مادية الحياة)، ويظن المسكين أن القضية حُسمت بوضع رابط أجنبي لا توجد داخله كلمة عربية واحدة وبه صور كثيرة تؤكد أن الموضوع كبير بغض النظر عن طبيعة الموضوع أو مصداقيته أمام التحري الدقيق!

وأغلب -إن لم يكن كل- ما يستند عليه المسكين من روابط يحفظها في صفحة Word عنده تكون في الحقيقة دراسات اختزالية تقوم على دعاوى لا تمت بصلة إلى الاستقراء الكامل الذي يبني عليه الإنسان عقيدته، ولا حتى الاستقراء الناقص الذي يُعتد به وقت الحاجة! بل البحث من باب تفريغ شحنة زائدة من أموال المؤسسة البحثية في قضية ملفتة للنظر وتخالف به ما اتفق عليه العقلاء من البشر لجذب الانتباه وزيادة التمويل ورفع نسبة التقييم Impact Factor.

فتقوم دراسة في تحليل نشأة الأديان مثلا على دراسة سلوكيات قبلية معينة بدائية وقت الظهيرة -لأن الباحث يستمتع بالخروج هذا الوقت حتى يكتسب جلده لون برونزي جذاب- فالباحث يخرج من مكتبه الذي أُعد بتكاليف باهظة في أحد أطراف تلك القبيلة لمدة ساعات قليلة بضعة أيام متتالية ثم يعود لمؤسسته البحثية واضعًا ما رصده بمنتهى الحرفية والضبط ثم يختم باستنتاجاته التي هي في الغالب تعتمد على خلفيته هو الثقافية وبنيته المعرفية ومقدار اطلاعه على ما سبقه في هذا المجال، ويصبح استنتاجه ورقة بحث يستخدمها الملحد كورقة ضغط حين نقول له مثلاً أن التوحيد سابق على التعدد فهنا سيخرج من متصفحه سريعًا ويذهب لصفحة الـWord ليُخرج منها البحث الذي يقرر أن تلك القبيلة البدائية وجدت بها وثنية، لكن ما أدراك أن هذه القبيلة بدائية ولم تسبقها قبائل أكثر بدائية، وما أدراك أنها لم تسبقها قبائل موحدة، وما أدراك أن سلوكياتها سلوكيات وثنية

وليست توحيدية؟ ألم يكتشف ول ديورانت في موسوعته قصة الحضارة أن أغلب الهندوس موحدين وأن تعدد الآلهة ليس أكثر من أيقونات كما في كنائس القديسين في الغرب، ثم كيف نسحب بحث لساعات على تاريخ العالم كله؟ وكيف يستقل بحث مهما كانت درجة عمقه بإخراج الحقيقة في قضية متشابكة كتلك القضية التي لم يجزم فيها أحد برأي حتى الساعة بناءً على شواهدهم، بل هناك مَن يجزم بأسبقية التوحيد مثل لانج Lange وباسكال Pascal وشميت Schmitt وبروس Bruce وكوبرز Coopers وغيرهم.[1]

لكن هنا الملحد الشاب سيفرح وسيعتبرها دراسة مقابل دراسة، ولذا فنحن نُحذر من هذه الطريقة في نقاش الملحد، لأن الملحد لا يعنيه الحق، بل يعنيه التشويش على ما عندك، فإلحاده يتغذى بانتظام من انتقاص ما عند الآخر وليس من بناء أدلة مستقلة، فإلحاده أصلاً بلا دليل وإنما عمدة أدلته هو نقض ما عند الآخر ولا يوجد مذهب مارسه الإنسان أعجب ولا أسخف من ذلك!

ونؤكد هنا على أنه: عندما تحاور ملحدا ويأتيك بدراسة كتلك فلا تواجهه بدارسة مقابلة، بل لابد من أن توضح له أولاً أن دراسات العلوم الإنسانية لا تعتمد على معادلات فيزيائية صارمة حتى نخرج منها برأي، بل هي تخضع للخلفية الفكرية للباحث والميول التي تنتزعها المؤسسة البحثية التي تمول بحثه، فدراسات العلوم الإنسانية أسيرة اللحظة وأسيرة عقائد الباحثين وأسيرة المناخ الذي تعمل فيه بعكس بقية فروع العلم!

وأحد الأمثلة على ذلك أبحاث إيميل دوركايم Émile Durkheim في الطوطمية والتي ثبت مؤخرًا أنه توجد قارات كاملة لم تسمع عن الطوطمية عبر كل تاريخها ومع ذلك كان لها نسق ديني توحيدي متميز منذ البدء، ودوركايم أيضًا كان له الدور الأكبر في تدليس المعرفة عند الأوربيين خلال عقود طويلة عندما كان يطرح حفلات القبائل البدائية بما فيها من عربدة وارتكاب للمحرمات كمظهر تديني عندهم، إذ ثبت أن هذه الحفلات كانت تمردًا على هيكل الحياة الإجتماعية والدينية للقبيلة وليس العكس، وأصبحت الآن هذه الحقيقة من أشهر تدليسات دوركايم! فالنظم القبلية في كل المجتمعات تقوم على الفصل التام بين الجنسين؛ إنه لمن السخرية أن يعرض علينا دوركايم ولعقود طويلة هذه الحفلات الماجنة وهذا المسرح البدائي المتهتك بإسم المحراب المُقدس للأديان، بل إنه جعل التمرد على الدين مظهرًا دينيًا، ومحاولات التمرد والصبيانية الشهوانية معيارًا للدين عند الأولين!

فالمقصود هنا أن دراسات العلوم الإنسانية هي مقاييس شخصية لا تعطي معيارية ضابطة وصالحة للترجيح وإنما تكمن فائدتها في باب إثراء النقاش لا أكثر.


Ketchikan, Alaska.
Native American totem pole.

بقي أن نعود إلى موضوعنا الأساس ونؤكد أن تحليل الظاهرة الإلحادية في أي بعد من أبعادها هو تحليل معقد وشائك، لأن القضية ترتبط بأشخاص يبحثون عن الظهور والتمايز والتبشير بعقيدتهم الجديدة بأي ثمن، ولذا فمن أكثر الأمور تعقيدًا هو نسبة الملحدين العرب، فمن البديهي أن يبادر الملحدين إلى التسجيل في أية موقع يطلب بحث استقصائي بأعدادهم في حين يتجاهل الجل الأعظم من البشر الموضوع ويعتبرونه لا يعنيهم، ومن البديهي عندما يسأل صحفي أحد الملحدين عن نسبتهم أن يُضخم العدد قدر المستطاع حتى يُعطي لقضيته معنى. ومن البديهي أن يرسل الملحد رابط بحث أعداد الملحدين لأصدقائه في حين تتجاهل جموع البشر هذا الرابط لأنها في الغالب لم تسمع بهذا الأمر من قبل.



لكن في الواقع الذي أكاد أجزم به بناءً على استقراء لسنوات طويلة مع الملحدين وبناءً على دعوى أنه لن يظهر ملحد عربي في الإعلام إلا ويعرفني أو أعرفه ولم تنخرم هذه الدعوى حتى الساعة، وبناءً على ارتباطي بظاهرة الإلحاد حتى قبل أن يظهر مصطلح الإلحاد الجديد New Atheism في الغرب، وبناءً على نقاشات طويلة دارت بيني وبين متخصصين في هذا المجال حول أعداد الملحدين، وبناءً على رصد صفحات الملحدين وأعلى معدلات انتشارهم سواءً في الفيس بوك أو تويتر أو يوتيوب أو في منتدياتهم، وبناءً على احتساب أعداد الأعضاء مع هامش وجود أعضاء يدخلون بأكثر من اسم وهامش وجود مسلمين بينهم، ونصارى بكثافة، وأقليات عرقية تدعي الإلحاد حقدا وكيدا بالمسلمين، بناءً على ما سبق: فإنني أكاد أجزم أن عدد الملحدين العرب في جميع البلدان العربية -باستثناء المقيمين بالغرب- لا يتجاوز ٣٠ ألف ملحد، وكل صحفي يأتي بأرقام خرافية فليترك المجال لأهله شفقة على قولوني العصبي بارك الله فيكم!

المراجع :

(1) Andrew Lang, “The Making Of Religion”, New York 1968.



نصائح للسائرين على درب الأنبياء

عبد الباسط قاري

الحمد لله الهادي إلى طريقه، العالم بفساد قلوبنا وصلاحها، يهدي مَن يشاء إلى طريقه المستقيم، والصلاة والسلام على رسوله وعلى أنبيائه أجمعين.

يسأل بعض الإخوة: لماذا نناقش الملحد والكافر فنراه يستيقن الحق ولكنه لا يعود إليه ولا يعترف به؟

فأقول وبالله التوفيق ومنه العون والسداد:
اعلم أخي المسلم أنه يجب عليك تبليغ رسالات الله وتوحيده إلى الناس كافة دون انتظار النتيجة، فقد ورد: "عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: خرج علينا النبيُ صلى الله عليه وسلم يومًا فقال: عُرضت عليّ الأمم فجعل يمُر النبيُ معه الرجل والنبيُ معه الرجلان، والنبيُ ومعه الرهط، والنبيُ ليس معه أحد" رواه البخاري في جزء من حديث طويل، فهؤلاء خير خلق الله الأنبياء لم يتبع بعضهم أحد!! فهل كانوا على باطل؟ أبدًا والله وحاشاهم عليهم السلام، إنما بلغوا رسالة الله والتوحيد ولكنه لم يتبعهم أحد لأنهم مجرد أسباب للهداية إلى الطريق، عليهم هداية الإرشاد وأما هداية التوفيق فبيد الله سبحانه وتعالى يُعطيها لمَن يستحقها، ولا عبرة هنا بالكثرة فالحق يُعرف ولو قلّ أتباعه.

وقد جاء عدة مرات في كتابه تعالى أن الله لا يهدي القوم الظالمين؛ والمعنى أنه سبحانه لا يُوفق إلى طريقه مَن هو مُستمسِكٌ ومُصِرٌ على مثل هذه الصفات، فالله لا يوفق للرشد مَن حاد عن سبيل الحق وجحد ما جاء من عند الله، فهناك فرقٌ بين الإصرار والاستكبار، وبين الغفلة والهوى والضعف، إن الله لا يوفق للحق مَن هو متجاوز للحد بترك الحق والإقبال على الباطل، ومهما كذب أمثاله في نسبتهم ما أسرفوا فيه على أنفسهم من الكفر والإلحاد والبطلان إلى الله تعالى وقضائه وقدره وهو لم يُجبرهم على شيء!

فلابد للإنسان الضعيف أن يعترف بافتقاره إلى ربه وخالقه ومولاه، وبانكساره وحاجته إليه، ويعرف أهمية الهداية وأنها غالية، وأنها أكبر نعمة يَمُنها الله عز وجل على عباده، فمعظم الملاحدة والجاحدين فيهم صفات الاستكبار على الله تعالى والعلو بل وتصور المنة عليه في حال اعترفوا به وبشرعه والعياذ بالله.



" إذا كان المرء لا يؤمن بوجود إله ليُحاسبه، إذن ما هي الفائدة من محاولة تعديل تصرفاتك لتبقى في الحدود المقبولة؟! هذا ما اعتقدته على أي حال، كنت دائمًا أعتقد بأن نظرية التطور حقيقة، بأننا أتينا من الوحل: عندما نموت، لا يوجد شيء! "

السفاح جيفري دامر

" If a person doesn't think there is a God to be accountable to, then—then what's the point of trying to modify your behaviour to keep it within acceptable ranges? That's how I thought anyway. I always believed the theory of evolution as truth, that we all just came from the slime. When we, when we died, you know, that was it, there is nothing... "

Jeffrey Dahmer, Interview with Stone Phillips, Dateline NBC, Nov.29, 1994.

- البط الأسود

لا شك أن طلب الشعور بالتميز هو أحد مداخل الهوى والغرور عندما ينشأ من نقص حقيقي في النفس وليس عن استحقاق ممدوح من الآخرين، مثل ذلك مثل الأعرابي الذي أحزنه عدم شهرته بين الناس، فلمّا قدِمَ مكة -وعلى طريقة خالِف تُعرف- تبولَ في بئر زمزمَ وتحمل الضرب واللوم على ذلك فقط ليشتهر!

ومن هنا حَق لنا أن ننظر إلى رؤية الملحدين لأنفسهم على أنهم (البط الأسود) الشاذ وسط سائر البط فاتح اللون! لأنه -وفي نفس الوقت أيضًا- يراهم الناس بالفعل عنصرًا شاذا بينهم، فما هو السبب يا ترى؟ ولماذا تتفق سائر المجتمعات في العالم على استبعاد (البط الأسود) من بينها أو النظر إليه نظرةً دونيةً لا ترتقي للاحترام الحقيقي -وبعكس محاولات التلميع الإعلامي المستمر- للملحدين؟

- سر التميز: نقمة عند الملحدين

نظرت يومًا في حالهم لأعرف سر اضطهاد الناس والمجتمعات لهم؟ فهم من كل مستويات الحياة من الشاب الصعلوك إلى العاهرة إلى الدكتور الجامعي إلى الموظفة المُتعلمة وحتى منهم عالم الفيزياء أو الأحياء. بل وكذلك ما قد يصدر عنهم من جرائم أو تعديات فلن أكذب وأنفي إمكانية صدور مثلها من أصحاب الديانات أو العلمانيين!! إذن: ما هو سبب التميز (المذموم) الذي يجعلهم في خانة المنبوذ دومًا كما أشرنا إليه في مقالة سابقة[1] حيث رأينا فيها مثلا عنوان مقالة موقع الـ NCBI الشهير عن عدم الثقة مطلقا في الملحدين.[2] حيث اعتمد المقال على نتائج الدراسة التي قام به البروفيسور ويل جيرفيس Will Gervais وزملاؤه وتم نشرها في مجلة (علم النفس الاجتماعي والشخصي) Journal of Personal-ity and Social Psychology حول سبب عدم الثقة في مُعاملة الملحدين. وكذلك عنوان مقالة مجلة الساينتفك أميركان Scientific American بعنوانها التهكمي "نحن لا نؤمن بالملحدين".[3] أو المقال البحثي بجريدة Washingtonpost والذي يتساءل: لماذا لا زال الأمريكيون لا يُحبون الملحدين؟[4]

وذلك بناء على الدراسات الاستقرائية التي أكدت أن نسبة كراهية الملحدين في أمريكا وحدها بلغت ٣٩.٦٪ وهو ما عبرت عنه جريدة Newsjunkiepost الشهيرة في عنوانها الصريح (Research Finds that Atheists are Most Hated and Distrusted Minority) عن أكثر الفئات كرها وانعدام ثقة.[5]

أقول: نظرت فيما يُميز الملحدين لكي يُصاحبهم ذلك الازدراء الدائم لهم في المجتمعات على اختلاف توجهاتها (إسلامية، نصرانية، دينية، علمانية...) فوجدت أنه (انعدام الثوابت البديهية والمرجعية الأخلاقية أو القيمية لهم).

فكل المؤمنين -على اختلاف طوائفهم- يرضون بالثوابت البدهية العقلية ويقتنعون بها، مثل بديهة وجود صانع وخالق لكل هذا الكون الدقيق والمخلوقات المُحكمة، وأن العدم لا يخلق شيئا، واستحالة ظهور وعي وإرادة من مادة صماء بغير إله، وهو ما لا يتصف به الملحدون للأسف لكي يستقم لهم إلحادهم وتهربهم من الاعتراف بالله!

أيضًا كل المؤمنين لهم مرجعيات أخلاقية أو قيمية يُمكن أن تحاكمهم إليها إذا أخطأوا أو مالوا عنها -وحتى العلمانية كذلك لها قواعدها التي تقننها مثل احترام القوانين وعدم التعدي على الحقوق والحريات الشخصية ونحوه- إلا الإلحاد! فإنه يتجلى لنا شذوذه في هذه النظرة العدمية لأي مرجعية يمتلكها سواء في الأخلاق أو القيم أو القوانين أو الحريات.

ولا شك أن ذلك نابعٌ من غياب المفهوم الوجودي (الإيجابي) للملحد، وإلا فلكم أن تتخيلوا ملحدًا لا يرى في نفسه ولا غيره إلا مجموعة ذرات بلا روح تجمعت بالصدفة من غير هدف، ثم هي تتفرق أيضًا بعد عمر طويل أو قصير بلا أي قيمة ولا غاية وجودية في الحياة!! فملحد بهذه المرجعية لا يُتوقع منه إلا أن يكون إله نفسه، ومفهوم الصواب والخطأ عنده نسبي حسب حاجاته وشهواته وميوله ونزواته، حيث لا رادع يردعه عن الإجرام ونيل ما يريد إذا شعر بغياب الرقيب أو الحسيب، وذلك بعكس المؤمن والذي لديه تجسيد دائم للضمير

الحي وملازم لفكره وداخلة نفسه سواء التزم به أو خرقه في بعض الأحيان.

لن نطيل في شرح هذه الخلفية العدمية للإلحاد والملحدين ولكن ننتقل إلى مظاهرها العملية التي تجعل من (المواطن الملحد) بطًا أسودًا شاذا بالفعل لا يرغب فيه أحدا!!

وصدقوني ستعجبون كثيرًا مما ستقرأونه بعد قليل من تحليل الملحدين لأنفسهم جرائم قتل وإبادة واغتصاب وخيانة زوجية حسب الحاجة والشهوة التي لا مُحدد لها عندهم!!

- الانتماء والتضحية

إن الشعور بالانتماء والتضحية في الإنسان لا يمكن تغذيته ماديًا ولا بكل مال العالم وكنوزه، فقط المعتقدات والدوافع النفسية الاجتماعية والأسرية هي الرافد الوحيد له وهو الشيء الذي يعرفه كل قادة العالم من ساسة وحكام وملوك، ولذلك ترى في الجيوش المؤمنة أنه يتم استدعاء وإشعال هذه الحالة الوجدانية من الانتماء والتضحية قبل أي معركة أو تحرك حاسم قد يتعرض فيه الجندي للإصابة أو القتل! -وهو نفس ما سمعناه من آبائنا عمّا تم معهم قبيل حرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣م من زيارات لشيوخ ودعاة لمعسكرات الجنود لإشعال الحس الديني لديهم-.

والآن نعود إلى المقياس الإلحادي، ونسأل: في أي مرجعية إلحادية أو قيمية نجد أنه لبعض الذرات المادية للآخرين الأولوية في البقاء على حساب ذرات جسد الملحد؟! أو حتى تستحق الإصابة من أجلها ولن نقول الموت؟! العجيب أن علاقات الأبناء والآباء نراها تتحطم كذلك على أعتاب آليات البقاء للأقوى وتحت أقدام مؤسسي الأفكار الإلحادية المادية والتطورية التي يتغذى على أفكارها وإلهاماتها الملحدون، بل وإلى الدرجة التي نجد فيها داروين نفسه في كتابه (أصل الأنواع) يفترض وقوع مثل هذه الصراعات بين الأبناء للقضاء على الآباء والحلقات الوسيطة في التطور في زعمه![6]

إذن -وبميزان اجتماعي نفسي بحت- فالملحد أبعد ما يكون عن الشعور بالانتماء أو التضحية -والتي تتخطى امتناع التضحية بالإصابة أو الموت إلى امتناع التضحية بالمال وبكل شيء لو صح إلحاده- فهل مثل هذا الصنف من (المواطنين) يرغب فيه أحد؟!

- الأمانة وشهادة القضاء

لقد تكررت واقعتان مشهورتان للشعب الأمريكي كان الحدث المشترك فيهما هو انقطاع الطاقة عن أكثر من ولاية في وقت واحد حتى أنهم يسمون الواقعة الواحدة منهما بـ (اليوم الأسود)، وتجدونه في أفلامهم الوثائقية الإنجليزية وفي أخرى مترجمة للعربية باسم (أمريكا في الظلام).[7]

في مثل هذه الوقائع رأى العالم القيمة العملية لمعنى كلمة (الضمير) الديني والإنساني، وكيف أن ذلك الضمير الذي يسبح ضد المادة وأنانية الإلحاد له أكبر الأثر في ضبط الأمان المجتمعي في حال ضعف أو غياب المراقبة (الرسمية) أو (الحكومية) في البلاد!!

ففي الحالة العادية نرى التزام الأمانة في كل المحلات التجارية أو السوبر ماركت أو المولات الكبيرة، ونرى الأمن -من المفترض- وهو يخيم على الكثير من الشوارع والمنازل والبيوت لوجود الأمن والشرطة في الجوار يشاهدون ويراقبون ولكن: ماذا عندما تنقطع الكهرباء أو الطاقة فتتوقف كاميرات المراقبة والتصوير ويسود الظلام الشوارع والمنازل والبيوت؟

نقول أنه بالنسبة للمؤمن بإله رقيب حسيب مُطلع على كل أحواله: فلن يفرق الأمر معه كثيرًا لأنه إذا غاب النور فإن رب الظلمة والنور لا يغيب!! ولأنه إذا هرب المجرم بفعلته في الدنيا فماذا سيفعل في حساب الآخرة أمام مَن لا تخفى عنه خافية؟!

ورغم أن السرقة والتعدي يمكن صدورهما من مؤمن ضال مُخطئ أو مُذنب كما قلنا، إلا أن المؤمن أو العلماني تستطيع أن تحاكمه إلى مرجعيته الأخلاقية أو القيمية فتقيم عليه الحُجة، حيث يُمثل التفكير في ذلك بالنسبة له رادع (عقلي) و (قلبي) أولي قبل الشروع في أي تعدي أو جريمة، ولكن الملحد: من أين له بمثل هذا الرادع إلا خوف العقاب وهو ما سقط بسقوط الرقابة وكاميرات التصوير وحلول الظلام الدامس؟



هذا مثال بسيط وسريع على مفهوم (الأمانة) من حيث وجودها عند المؤمن والملحد، ويُقاس على ذلك المثال أمثلة كثيرة جدًا لا تنتهي من حياتنا اليومية للأسف ولا يُمكن فيها الوثوق أبدًا بأمانة الملحد لانعدام هذه المرجعية الأخلاقية أو القيمية لديه والتي تبيح له فعل وتسويغ أي شيء في أي وقت حسب مصلحته وحسب شهوته، بدءًا من العثور على ورقة نقود في الشارع دون أن يره أحد، وانتهاءًا بخيانة الأعراض والزوجات للأقارب والجيران والمعارف والأصدقاء. وإذا كان الوضع كذلك، فما هي نسبة صحة شهادة الملحد في المحاكم؟! لكم أن تتصوروا الفاجعة..

لقد نشأنا منذ الصغر ونحن نرى في بلادنا الإسلامية والعربية -وحتى الأجنبية كما في الأفلام والمسلسلات- حرص القاضي دومًا على أن يؤدي الشاهد اليمين أو القسم أو الحلف وذلك لإحراجه أمام ضميره -ذلك الضمير اللامادي الذي لا يعترف بوجوده الملحد أصلا- وهنا لنا أن نتخيل ذلك الموقف المُضحك عندما يقف الملحد في القاعة ويطلب منه القاضي أداء اليمين، فعلى ماذا

الموقف المُضحك عندما يقف الملحد في القاعة ويطلب منه القاضي أداء اليمين، فعلى ماذا سيُقسم وبماذا يَدين؟!

هي صورة هزلية في الحقيقة أنتجتها انعدامية معاني الأخلاق والأمانة لدى الملحد المادي لتحل محلها معاني المصلحة الشخصية أو الانتهازية أو مصلحة مَن يدفع أكثر؟

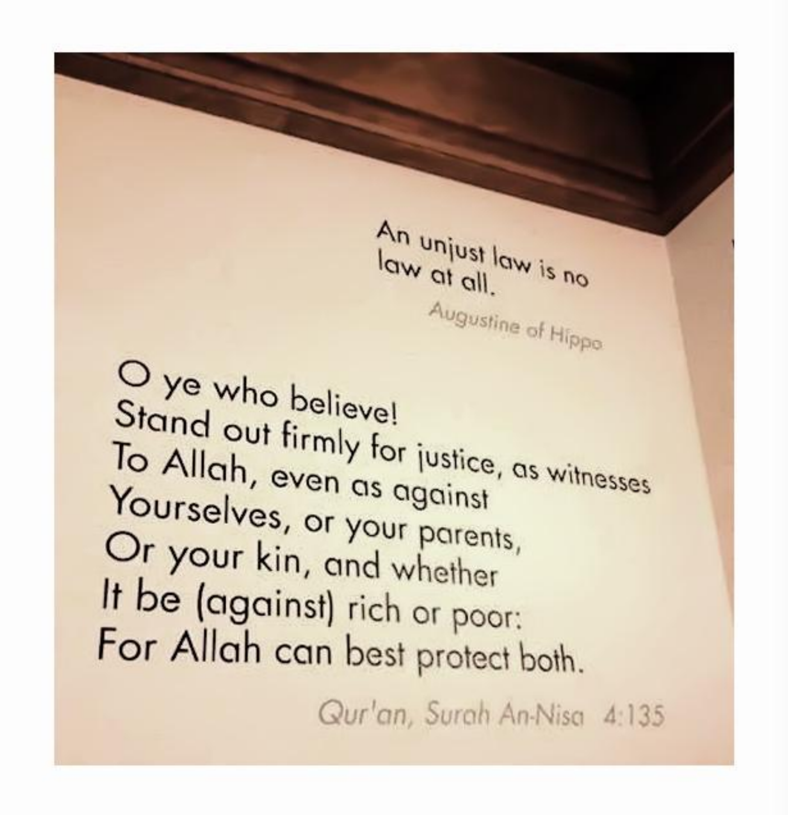
ونفس ما قيل في حديثنا عن الأمانة من احتمالية وقوع مثل هذه الخيانات من مؤمنين -ولا ننكر ذلك رغم أنه يُرفع عنهم وصف الإيمان في تلك اللحظة- إلا أنه وكما وضحنا من قبل فهناك فارقٌ جوهريٌ في وجود رادع عقلي قلبي قبل الجريمة؟ وهو ما يجعل المؤمن مترددًا قبلها أو ينزع للتوبة بعدها، أما عند الملحد فلا.

يقول الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا) النساء ٥٨. وهذا ينطبق على رد الودائع والتعامل بالأمانة مع المسلم والكافر على حدٍ سواء، حتى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ورغم كل ما عاناه من كفار مكة قومه؛ إلا أنه راعى

أمانته معهم حيث كانوا يودعونه أشياءهم رغم عدائهم له -وكيف لا وهم الذين عرفوه طول حياته بالصادق الأمين؟!-. فنراه في الهجرة يترك عليًا رضي الله عنه في بيته ليرد لهم ودائعهم وأمانتهم.

وأما في شهادة الحق فيقول جل في علاه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ) النساء ١٣٥. والآية لا تحتاج إلى شرح، وقد عدّها القائمون على كلية القانون بجامعة هارفارد الأمريكية Harvard University إحدى أعظم مقولات العدل في التاريخ الإنساني، فاختاروها لتكون من ضمن المنقوش على الحائط الرئيسي المواجه للمدخل.[٨]

فهل رأينا معًا إلى أي مدى سيكون تأثير (المواطن الملحد) في أمن وأمان وأمانة المجتمعات؟ طبقوا تلك الرؤية إذن بشكل أوسع في الأعمال الهامة والحساسة لأي دولة أو مجتمع مدني بل وفي مسائل الزواج والتربية والتعليم والرعاية. نطالع مثلا في المقالة التي أشرنا إليها أعلاه (نحن لا نؤمن بالملحدين)؛ أن أغلب الأمريكيين لا يقبلون أن يُدرس لأبنائهم مدرسا ملحدا.



كما جاء في الحلقة الثانية[٩] من برنامج (وهم الإلحاد) للدكتور هيثم طلعت على قناة البينة الأخبار المُعبرة التالية:

- في أيرلندا -والخبر من جريدة التايمز الأيرلندية Irishtimes- حيث يجبر الملحدين أو المُنكرين لله على تدريس الدين في المدارس الحكومية.[١٠]

- ونقرأ في دستور ولاية أركنساس: أنه لا يجوز لأي شخص يُنكر وجود الله تولي رئاسة أي إدارة مدنية لهذه الولاية، ولا التقدم كشاهد أمام أي محكمة.[١١]

- والأمر مشابه لذلك أيضًا في دستور ولاية نورث كارولينا، حيث جاء في بند فقدان أهلية الرئاسة: الأشخاص غير المؤهلين لتولي الرئاسة... أولهم: أي شخص يُنكر وجود الله العظيم.[١٢]

- لماذا هؤلاء صادقون مع أنفسهم في استبعاد (المواطن الملحد)؟

يقول الكاتب الروسي الشهير فيودور دوستويفسكي Fyodor Dostoyevsky (توفي ١٨٨١م) في آخر وأروع رواياته التي تغوص في النفس الإنسانية بمشرطها الدقيق -قصة الإخوة كارامازوف-: "لو لم يكن هناك إله، فكل شيء مُستباح".[١٣]

وهو مصداق ما قاله من قبله الفيلسوف والطبيب والمفكر الإنجليزي (جون لوك) أحد مؤسسي الدولة المدنية الحديثة (توفي ١٧٠٤م): "لا يمكن التسامح على الإطلاق مع الذين يُنكرون وجود الله... فالوعد والعهد والقسَم من حيث هي روابط المجتمع البشري: ليس لها قيمة بالنسبة إلى الملحد!! فإنكار الله حتى لو كان بالفكر فقط: يُفكك جميع الأشياء".[١٤]

وهكذا لا تنتهي سلسلة الحُكم العاقل على (البط الأسود) بالشذوذ والإفساد النفسي والمجتمعي وإلى اليوم، وقد اخترنا مقالة اثنين فقط من القدامى لنرى دقة نظرتهم في الملحد الذي وصل اليوم لأشنع مما كان عليه في وقتهم بكثير!! فإلى أي مدى صدقت توقعاتهم تلك؟

- إفساد العلم

الملحد هو الشخص الوحيد الذي إذا رأى ماكينة ما وتوصل إلى كيفية عملها: فعليه أن ينفي ساعتها أن يكون لها صانع!! لأن هذا هو ملخص إلحاده المزعوم عندما ينظر لأي ظاهرة في الكون أو المخلوقات فيزعم أنه ليس لها خالق ولا صانع طالما استطاع أن يعرف طريقة عملها أو تأديتها لوظيفتها!! أيضًا هو الوحيد الذي إذا جلس أمام برنامج حاسوبي ولم يعرف وظيفة أحد الأزرار: فعليه أن ينفي ساعتها أن يكون للبرنامج صانع أو مبرمج أو مُصمم!! فبئس العلم ساعتها هذا العلم الذي يزدري العقل والمنطق!!

ولا ينتهي الشذوذ والإفساد عند هذا الحد، ولكن نرى المزيد من تدليسات (المواطن الملحد) للحقائق عندما يزعم أن العلم لا يؤمن بوجود إلا كل ملموس ومُشاهد!! فهذا لعمرُ الله داءٌ ما له دواء عند العقلاء!! إذ معلوم أن العلماء قد أثبتوا وجود الجاذبية الأرضية مثلًا والإلكترونات والفوتونات وغيرها من مجرد آثارهم فقط رغم أنه لم يرهم أو يلمسهم أحد!! وقد شرحنا كل ذلك من قبل في مقالة العدد الماضي.[١٥]

العجيب هنا -وعلى النقيض من ذلك- نرى الملحد يستميت في إثبات خرافاته الإلحادية وخيالاته الافتراضية -فكرة التطور كمثال- بغير دليل مادي واحد ملموس حسب طريقة تفكيره!! وذلك إما بالمسارعة إلى (إله فجوات) خاص به لتفسير كل ما يجهله من وظائف الأعضاء بكونها أدلة على التطور -ومثلما يفعل تحت مُسمى الأعضاء الضامرة أو الجينات الخردة- وإما بالمزيد من تأليف القصص الوهمية عن التطور في الماضي السحيق والتي لم ولن يرها أحد، وإما بمزيد من الغش والتزوير لأدلة على التطور ما تلبث إلا أن تنكشف -مثل تزويرهم وتأليفهم للعديد من حفريات الكائنات الوسيطة التي لم توجد في الحقيقة-.

وهنا سنكتفي بمثال واحد صغير ليتعرف الناس على نوع (المواطن الملحد) في العلوم كيف يكون؟.. ففي تسعينات القرن الماضي تم العثور على قطعة عظم من ضلع دولفين، ولكن التطوريون -وعلى الفور- قالوا أنها من بقايا ترقوة سلف الإنسان، هل تتخيلون من قطعة عظم واحدة يفترون الأكاذيب العلمية بكل بساطة واستخفاف بعقول البسطاء وغير المختصين!! - وبالطبع سرعان ما تم اكتشاف الأمر، وليُعلق عليه الدكتور تيم وايت Tim White أستاذ الأنثروبولوجيا التطورية بجامعة كاليفورنيا بيركلي قائلًا: "المشكلة مع الكثير من علماء الأنثروبولوجيا هي رغبتهم المُلحة لإيجاد أسلاف الإنسان، لذلك فإن أي شظايا من العظام تصبح عظامًا لأسلاف الانسان".[١٦]

- الاستخفاف بالحياة والبشر

حيث كما قلنا من قبل أن الملحدين ينظرون إلينا كمجموعة من الذرات لا أكثر ولا أقل، تلك النظرة المادية البحتة الخالية من أي قيمة أو مشاعر أو هدف أو غاية.

يقول أشهر علماء الفيزياء والفلك الملحدين ستيفن هوكينج Stephen Hawking: "الجنس البشري ليس إلا حثالة كيميائية على سطح كوكب متوسط الحجم".[١٧]

فإذا كانت هذه هي نظرة عالم من علماء الملاحدة!! فكيف بعوام الملاحدة وسفهائهم؟!

وهذا ملحد تطوري آخر وهو السير ديفيد أتنبره David Attenborough يقول: "أوقفوا إطعام أمم العالم الثالث لتقليل عدد سكان العالم".[١٨]

فالويل الويل لهذا العالم الذي عندما يتولى فيه الملحدون مقاليد السياسة والحكم العسكري. أبادوا الملايين من شعوبهم وشعوب غيرهم لأتفه الأسباب ولفرض الإلحاد والشيوعية عليهم -مثل ستالين ولينين وماو تسي تونغ وبول بوت وغيرهم-، وأما علماؤهم ومفكريهم فلا يجب أن ننتظر منهم -بوصفهم مواطنين ملحدين- إلا الأقوال العدمية المحضة والتي لا تحمل إلا موتا بطيئا للفقراء والضعفاء في سبيل راحتهم الخاصة!

- ما دام لا حساب بعد الموت!

حيث نرى مثلا القاتل السفاح جيفري دامر Jeffrey Dahmer والذي قتل ١٥ من الشباب تقريبًا وقطع أجسادهم وكان أحيانا يسلخ ويأكل أجزاءً منهم أو يحتفظ بهياكلهم العظمية، يقول في لقاء مع NBC والمذيع ستون فيليبس ١٩٩٤م بعد القبض عليه: "إذا شخص لا يؤمن بوجود إله ليُحاسبه، إذن ما هي الفائدة من محاولة تعديل تصرفاتك لتبقى في الحدود المقبولة؟! هذا ما اعتقدته على أي حال، كنت دائمًا أعتقد بأن نظرية التطور حقيقة، بأننا أتينا من الوحل: عندما نموت، لا يوجد شيء".[١٩]

وبالطبع ليس كل (المواطنين الملاحدة) يقع القبض عليهم متلبسين بجرائمهم مثل هذا السفاح، فهناك آخرون يؤسسون لمثل هذه المصائب في كتبهم وكلامهم وقليلا مَا يلتفت إليهم أحدٌ للأسف، منهم الملحد الشهير سام هاريس Sam Harris الذي يُمهد لأي جريمة إنسانية بتطبيقه لنفس آليات التطور المزعوم - مثل البقاء للأقوى أو الأصلح أو تمرير الجينات إلخ -! حيث يقول عن جريمة الاغتصاب: "لا يوجد شيء طبيعي أكثر من الاغتصاب. البشر تغتصب، الشيمبانزي تغتصب، الأورانجتون تغتصب، الاغتصاب من الواضح هو جزء من الاستراتيجية التطورية لتمرير جيناتك إلى الجيل اللاحق".[٢٠]

- إفساد العلاقة بين الجنسين

ولا نعني هنا فقط الشذوذ الجنسي أو المثلية الجنسية كما يسمونها، ولكننا سنذهب أبعد من ذلك لنتأكد بأنفسنا من أن الملحد لا قانون ولا مرجعية أخلاقية ولا قيمة واحدة عنده ثابتة إلا ما يشتهي ويريده كالحيوان: فساعتها يُبرره!! ولذلك كان من الصعوبة بمكان أن يرضى إنسان أو إنسانة بأن يكون شريك حياته ملحدًا وكما سنرى بعض الأسباب الآن.

فهذا أشهر علماء الملاحدة البيولوجيين ريتشارد دوكينز Richard Dawkins في مقالته (إبعاد الوحش ذي العين الخضراء Banishing the Green-Eyed Monster) يؤكد لقرائه كيف أن (الخيانة الزوجية) لا شيء فيها البتة من منظور الطبيعة المادية الحيوانية، بل ويتساءل: "لماذا كل هذه الهواجس حول الإخلاص لزوجة واحدة؟ لماذا نعتبر كلمة الغش هي الوصف لذلك؟! ولماذا يشعر الإنسان بأن له ملكية خاصة في جسد إنسان آخر". [٢١]

ويا ليت الأمر توقف عند هذا الحد، بل تخطاه إلى ممارسة الجنس مع الحيوانات كذلك، وأنعِم وأكرم بالمواطن الملحد الذي لا حدود لأقواله ولا تصرفاته. فها هو الملحد بيتر سينجر Peter Singer برفسور جامعة بريستون التطوري يقول في فيديو علني: بما أننا -أي الملحدين المعترفين بالتطور- حيوانات أو قردة عليا؛ فلا يجب أن يكون هناك عقاب للبهيمية! (وتسمى Bestiality أي ممارسة الجنس مع الحيونات).[٢٢]



Peter Singer, Photo: Derek Goodwin.

ويقول في كتابه (تحرير الحيوان Animal Liberation) بعدم منع (البهيمية) إلا لو كان فيها عنف![٢٣]

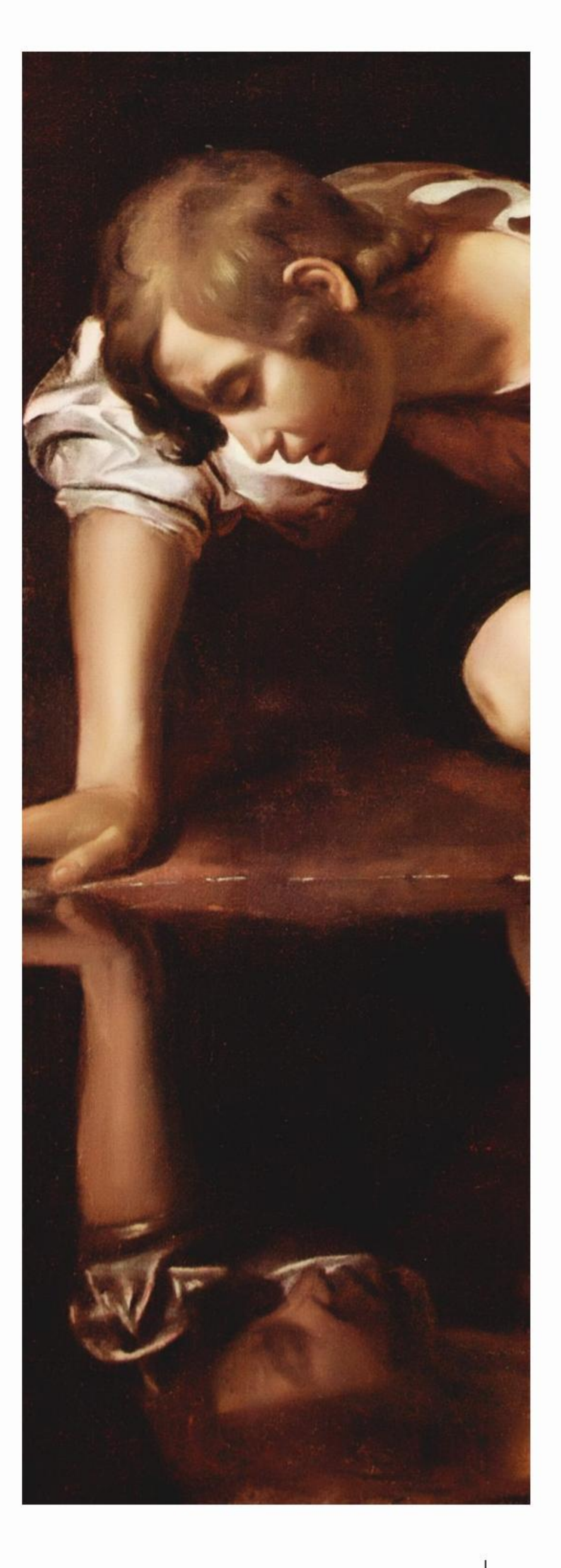
“Humans and animals can have "mutually satisfying" sexual relationships. Bestiality should remain illegal if it involves cruelty, but otherwise is no cause for shock or horror.”

أي بلد وأي عقلاء يرضون بمثل هذا التفكير الشاذ والقذر من (البط الأسود)؟ أو حتى يسمحوا له بالتواجد الفعلي والعلني بينهم عن طيب نفسٍ ورضا؟!

- الخاتمة: مواطن غير صالح للتعايش

ولو شئنا لأطلنا في تعديد مساوىء (المواطن الملحد)، ولكن ما ذكرناه يغنينا عن المزيد في كل نقطة من نقاطه، ونختم فقط بهذه الصفات (الشخصية) للملحدين والتي تم تجميعها من دراسات أجنبية لنرى عن قرب كيف سيكون التعايش مع (البط الأسود) في المجتمع؟

فقد قامت جامعة تينيسي بأمريكا بعمل بحث مُجمع من أكثر من دراسة على غير المؤمنين



غير المؤمنين (ملاحدة - لاأدريين - لادينيين).[٢٤] وخرجت بنتيجة أن غير المؤمنين مُغلقين الفكر، ونرجسيين بطريقة مثيرة للاهتمام.

نقول: وهذه هي الصفات التي تناسب الملحدين بالفعل لأنهم يدافعون عن قضايا ساقطة عقليًا ومنطقيًا وعلميًا!! ويؤكد ذلك ما بينته الدراسة أيضًا من أن ٨٥% من غير المؤمنين يتسمون بصفات: (الغضب - الجدلية - الدوغمائية). وتعليقنا على ذلك أنهم لو كانوا على حق؛ ما كان هناك من داع لدوغمائيتهم وسفسطتهم المعروفة للدفاع عن باطل لا يصح.

وفي اختبار نفسي آخر في نفس البحث: سجل الملحدون أعلي معدلات في صفات (النرجسية - الدوغمائية - الغضب - أقل معدلات في القبول وإيجابية العلاقات مع الآخرين).

وهذا بحث أمريكي آخر من جامعة كامبريدج[٢٥] ينتقد فيه الإلحاد ويظهر مدي سخافة أفكاره وانعدام هدفه وغايته وقيمته في الحياة، بل ويسرد وقائع تاريخية على ذلك -والبحث مليء بالتفاصيل الكثيرة والهامة جدًا التي نرجو أن نترجمها في مقال منفصل قريبًا إن شاء الله-. العجيب أن نفس هذه النتائج هي التي طالعتنا بها الدراسة الشهيرة منذ ٢٠٠٤م والتي نشرتها مجلة رابطة الأطباء النفسانيين الأمريكيين American Psychiatric Association على موقعها الرسمي عن العلاقة بين الانتماء الديني ومحاولات الانتحار.[٢٦] حيث أثبتت الدراسة أن الإيمان والاستقرار الأسري يقللان كثيرًا من نسبة الانتحار المتزايدة عند الملحدين، حيث تقلل من (عدوانيتهم) الزائدة عن المؤمنين وكذلك الميل إلى (الغضب) و (الاندفاع) المتناسب مع اضطراباتهم النفسية والاجتماعية للأسف.

إذن الخلاصة: لا يصلح (المواطن الملحد) إلا كـ(بط أسود) شاذ ومنبوذ بالفعل من أي مجتمع محترم يحافظ على أهله وأهله يحافظون عليه!

المراجع:

(١) السينما واللاوعي: الخطاب الشعبي للإلحاد - العدد الثاني من مجلة براهين.

(2) Gervais WM, et al, "Do you believe in atheists? Distrust is central to anti-atheist prejudice", J Pers Soc Psychol. 2011 Dec;101(6):1189-206. doi: 10.1037/a0025882. Epub 2011 Nov 7.

(3) Daisy Grewal, "In Atheists We Distrust ", Scientific American, January 17, 2012.

(4) Gregory Paul and Phil Zuckerman, "Why do Americans still dislike atheists?", The Washington Post, April 29, 2011.

(5) Ole Ole Olson, " Research Finds that Atheists are Most Hated and Distrusted Minority", NEWS JUNKIE POST, Sep 19, 2009 at 11:31 am.

(٦) تشارلز داروين، "أصل الأنواع"، الإصدار السادس ١٨٧٢م بزيادة الباب السابع - نسخة المشروع القومي المصري للترجمة ٢٠٠٤م – ص ٢٨٣.

(٧) يمكن مشاهدة آخر الواقعتين في فيلم وثائقي تابع لقناة ناشيونال جيوغرافيك أبو دهبي – ويمكن مشاهدته مدبلجًا على اليوتيوب في قناة DocumentaryHD3 على الرابط التالي:

https://www.youtube.com/watch?v=0QZxFbGd4aI

(٨) يُعتبر المُبتعث السعودي إلى الولايات المتحدة الأمريكية "عبد الله الجمعة" هو أول مَن تنبه إلى هذه الآية المنقوشة مع غيرها على حائط كلية القانون فالتقط هذه الصورة التي نقلناها عنه من موقع " تويتر" – وهذا رابط النصوص المنقوشة على هذا الحائط:

http://library.law.harvard.edu/justicequotes/explore-the-room/west/

(٩) الحلقة بعنوان: (كيف ينظر الغرب إلى الملحد؟) الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=kbTiGIMgozs

(١٠) الأمر الذي أثار سخطهم بالطبع، وبدأوا في الشكوى، فإما أن يزال تعليم الدين وإما أن تبدأ الحرب...

Fintan O'Toole, " Why must agnostics be obliged to teach faith?", The IrishTimes, Feb 2, 2010.

(11) Arkansas State Constitution, Article 19 Section 1 Miscellaneous Provisions

(12) North Carolina's State Constitution, Article 6 Section 8

(١٣) رواية (الإخوة كارامازوف) The Brothers Karamazov – الكتاب الحادي عشر Book Eleven: Brother Ivan Fyodorovich وهي آخر مؤلفات فيودور قبل موته.

(١٤) جون لوك، "رسالة في التسامح"، نسخة المشروع القومي المصري للترجمة ١٩٩٧م - ص ٥٧.

(١٥) العلم بين الإيمان والإلحاد- العدد الثالث من مجلة براهين.

(16) Dr. Tim White- Evolutionary anthropologist -University of California at Berkeley - New Scientist, April 28, 1983, p. 199

(17) Stephen Hawking, Reality on the Rocks: Beyond Our Ken, 1995

(18) Anthony Gucciardi, " David Attenborough: Stop Feeding Third World Nations to Reduce Population", Infowars.com, September 18, 2013.

(19) Jeffrey Dahmer, in an interview with Stone Phillips, Dateline NBC, Nov.29, 1994

رابط اللقاء المُصور كاملا على اليوتيوب:

http://www.youtube.com/watch?v=vPMBfX7D4WU#t=11

(20) ABC Radio National, Stephen Crittenden interviews Sam Harris

(21) http://old.richarddawkins.net/articles/1926-banishing-the-green-eyed-monster

(٢٢) رابط الفيديو من اليوتيوب:

https://www.youtube.com/watch?v=2pG01ASbgyM&hd=1

(٢٣) رابط أقوال وآراء الملحد بيتر سينغر في الجنس مع الحيوانات:

http://fixedreference.org/en/20040424/wikipedia/Peter_Singer

(24) http://www.atheismresearch.com/

(٢٥) رابط الدراسة:

http://www.investigatingatheism.info/meaning.html#fn2

ولكن تعطل مؤخرًا للأسف، فيمكن الاطلاع عليه من موقع أرشيف النت:

https://web.archive.org/web/20131102071416/http://www.investigatingatheism.info/meaning.html

(26) Kanita Dervic, et al, " Religious Affiliation and Suicide Attempt", Am J Psychiatry. 2004 Dec;161(12):2303-8.



دعاية زائفة

"لا شيء يُفهم في علم الأحياء إلاّ على ضوء نظريّة التطوّر"

"Nothing in Biology Makes Sense Except in the Light of Evolution"

أحمد يحيى



"لا شيء في علم الأحياء من الممكن أن يُفهم إلاّ على ضوء نظريّة التطوّر"

كان هذا عنوانا لمقالة كتبها (ثيودوسيوس دوبجانسكي) عام ١٩٧٣م ومن ثم تحولت الى أيقونة مفضلة للترويج للداروينية.

ولكن...

ما مدى واقعية هذا الشعار المتكرر ؟

يجيب إ. إس. ويلكِنز AS Wilkins رئيس تحرير مجلة (بيو إيسز BioEssays) في عددها الخاص الصادر عام ٢٠٠٠م عن هذا الادعاء كاشفا عن ذلك التناقض بين عقيدة الداروينيين في اعتبار التطور مركزيا وبين التطبيق الفعلي للتطور في شتي مجالات البيولوجيا التي تعتبره زائداً عليها وعديم الجدوى[١].

ويرى (فيليب سكيل) عضو الأكاديمية الوطنية للعلوم بأمريكا أنه بعكس تلك الادعاءات التي يتم الترويج لها بأن التطور هو حجر الأساس في البيولوجيا التجريبية، فإنه لا يمثل أهمية تذكر كما جاء في تقرير مجلة The Scientist لعام ٢٠٠٥م[٢].

وكذلك الأمر في كافة مجالات البيولوجيا التطبيقية المختلفة، كما يؤكد البروفسيور (مارك كرشنر Marc Kirschner) رئيس قسم البيولوجيا بمدرسة (هارفرد) للطب حيث يقول:

"في الحقيقة، على مدار المئة عام الماضية، تقدمت معظم علوم الحياة باستقلال عن التطور، باستثناء البيولوجيا التطورية نفسها. علوم البيولوجيا الجزيئية، الكيمياء الحيوية، وعلم وظائف الأعضاء لم تأخذ التطور في اعتبارها على الإطلاق"[٣].

وحتى عام ٢٠١٣ لازالت التقارير تكذب ذلك الادعاء، ففي أحد التقارير المختصة بممارسة الطب والتي تم نشرها يقول أن التفسيرات المباشرة هي ما نحتاجه للتشخيص والعلاج، وأن التفسيرات المتعلقة بالنشوء والارتقاء ضعيفة، والأهمية السريرية للطب التطوري في أفضل الحالات غير مؤكدة[٤].

المراجع:

(1) "The subject of evolution occupies a special, and paradoxical, place within biology as a whole. While the great majority [of] biologists would probably agree with Theodosius Dobzhansky's dictum that 'nothing in biology makes sense except in the light of evolution', most can conduct their work quite happily without particular reference to evolutionary ideas. 'Evolution' would appear to be the indispensible unifying idea and, at the same time, a highly superfluous one."

"Special Issue: Evolutionary Processes", BioEssays, December 2000. Last accessed 30/5/2015 http://onlinelibrary.wiley.com/doi/10.1002/1521-1878%28200012%2922:12%3C%3E1.0.CO;2-8/issuetoc

(2) Philip Skell, "Why Do We Invoke Darwin?", The Scientist, August 29, 2005.
Last accessed 30/5/2015 http://www.the-scientist.com/?articles.view/articleNo/16649/title/Why-Do-We-Invoke-Darwin-/

(3) "In fact, over the last 100 years, almost all of biology has proceeded independent of evolution, except evolutionary biology itself. Molecular biology, biochemistry, physiology, have not taken evolution into account at all."

Peter Dizikes, "Missing links", Boston Globe, October 23, 2005. Last accessed 30/5/2015 http://www.boston.com/news/globe/ideas/articles/2005/10/23/missing_links/

4) Michael Cournoyea, "Ancestral Assumptions and the Clinical Uncertainty of Evolutionary Medicine", Perspectives in Biology and Medicine, Volume 56, Number 1, Winter 2013.
Last accessed 30/5/2015
http://muse.jhu.edu/login?auth=0&type=summary&url=%2Fjournals%2Fperspectives_in_biology_and_medicine%2Fv056%2F56.1.cournoyea.html



خداع المصطلحات

عمرو طارق

لكي نفهم المشكلة التي نحن بصدد مناقشتها، فيجب أن نعلم أن الاستخدام المخادع لكلمة التطور -للتعبير عن أي اختلاف في الأجيال المتتابعة- هو من أكثر التعريفات المخادعة التي يمكن أن تشاهدها.

الأمر الذي يسمح لكل دارويني بالادعاء أن التطور مثبت علميًا وتتم مشاهدته وتجريبه آلاف المرات في المعامل في محاولة لاستغلال التطور الصغروي Micro-Evolution للتعبير عن التطور الكبروي Macro-Evolution.

إلي ماذا يشير مصطلح التطور Evolution؟ هل هو حقا يشير إلى أي اختلاف أو تعديل على مر الأجيال؟ أم أن هناك تعريف آخر لا يذكر في المحافل العامة؟

إذا أردنا أن نعرف التطور كما تعرفه الكتب المدرسية text book definition، فيمكننا القول أنه: "التوريث مع التعديل من أصل مشترك"[1]، فالنظرية تفرض بشكل واضح وجود أصل واحد مشترك لكل الكائنات الحية على الأرض، وهذا الأصل المشترك بطبيعة الحال نشأ من مركبات كيميائية عضوية عن طريق تنظيمها في كائن أولي بسيط قادر على التضاعف والاستنساخ ذاتيا، وبهذا يكون التطور هو الانتقال من ذلك الشكل البدائي للحياة للتعقيد الحيوي الذي نشهده في يومنا هذا.

- هل هو مجرد التغير أم نوع التغير؟

في الواقع لا ينكر أحد مرور الكائنات الحية بمجموعة من التغيرات على مر الأجيال. فحدوث التغيرات أمر لا جدال فيه ولكن عندما نتحدث عن نوع التغير ينقسم العلماء فريقين، فريق منهم يرى أن تلك التغيرات التي تطرأ على الكائنات قادرة على تحويل سمكة إلى فيلسوف!! والفريق الآخر يرى أن لتلك التغيرات حدود ولا يمكن أن تضيف أي نوع جديد من المعلومات ولكنها تقوم على العكس بالتخلص من المعلومات وسنرى ذلك تفصيلا.

- الانتقاء الطبيعي ومصدر المعلومات

إحدى آليات التطور هي الانتقاء الطبيعي، وهو السماح للكائنات الأكثر تكيفا بالبقاء بينما يتم إقصاء الكائنات الأقل تكيفا مع البيئة، مما يسمح بنقل وتوارث بعض الصفات "المعلومات" والتخلص من بعض الصفات الأخرى "المعلومات".

وللتوضيح إليك المثال التالي:

تخيل أن لدينا مجموعة من الكلاب، قام كلبان طول فرائهما متوسط بالتزاوج -الكلاب متوسطة طول الفراء تعمل جين للفراء الطويل وآخر للفراء القصير- سينتج عن ذلك التزاوج كلاب فرائها قصير وأخرى فرائها طويل وأخرى فرائها متوسط، عندما يصبح المناخ باردا فقط تلك الكلاب صاحبة الفراء الطويل ستنجو من البرد بينما ستموت الكلاب ذات الفراء القصير والمتوسط، وهذا يعني أن كل الأجيال اللاحقة من هذا النوع ستصبح طويلة الفراء، وهذا ما يسمى بالتطور بالانتقاء الطبيعي.

لاحظ الآتي:

١) أصبحت الأجيال الجديدة أكثر تخصصًا من سابقتها.
٢) تمت تلك العملية بواسطة الانتقاء الطبيعي.
٣) لم يتم إضافة أي جينات "معلومات".
٤) تم إقصاء بعض الجينات "المسئولة عن الفراء القصير".

بعد تلك المشاهدات أصبح من السهل إدراك أن الانتقاء الطبيعي هو عملية تتسبب في خسارة وفقد المعلومات وليس العكس كما يصوره الداروينيون!! ولكي يصبح الانتقاء الطبيعي خلاقا لابد من إضافة معلومات جديدة عن طريق الطفرات وهو مالم يتم مشاهدته حتى اليوم.

هناك عملية مماثلة تسمى الانجراف الوراثي Genetic Drift وتحدث تلك الظاهرة نتيجة انفصال بعض الأفراد عن المجموعة مما يؤدي إلي ضياع الكثير من الجينات التي كانت موجودة بالمجموعة الأصلية فينشأ جيل جديد من الأفراد أصبح مختلفا عن الجيل الأول، ولكن أيضا لم تتم تلك العملية بإضافة أي نوع من المعلومات بل على العكس كان السبب الأساسي هو ضياع المعلومات.

التطور من حياة أولية بسيطة إلي كل تلك الأنواع التي تغطي الأرض يحتاج لإمداد مستمر من المعلومات، ولكن الانتقاء الطبيعي يتسبب في فقد المعلومات، ولكي نطلق مصطلح تطور مصغر Micro Evolution على أي تغير لابد أن يكون هناك أي إضافة طفيفة من المعلومات ففي النهاية كلمة Micro تشير إلي الصغر و Macro إلى الكبر، فيمكن استخدام الأولى في حال اكتساب قدر قليل من المعلومات والثانية عند اكتساب قدر كبير من المعلومات.

- عصافير داروين والتفسير العلمي للتنوع البيولوجي

لعلك سمعت عن جزر جالاباجوس وطيور الحساسين التي لاحظ داروين فيها اختلاف أشكال وأحجام المناقير حسب البيئة التي تعيش بينها، فكثيرا ما يتم الإشارة إلى ذلك المثال على أنه دليل قوي على التطور المُصغر، وتلك الأيقونة لا تختلف كثيرًا عن المثال السابق ذكره في المقال.



حيث بعد مواسم الأمطار الغزيرة تصبح البذور الصغيرة اللينة متوافرة بكثرة في كل أنحاء الجزر، وبذلك تستطيع الطيور ذات المناقير الصغيرة جمع طعامها بسهولة، لكن أثناء فترات الجفاف تصبح البذور المتوفرة مغطاة بقشور بأجزاء صلبة، وفي تلك الظروف فقط الطيور ذات المناقير الحادة الطويلة هي التي تستطيع أن تحطم القشرة الصلبة وتلتهم البذور، تلك الطيور ذات المناقير الطويلة ستنجو بحياتها، وتموت الطيور ذات المناقير القصيرة، ويتم نقل تلك الصفة وراثيا للأجيال الآتية فنحصل على نوع جديد له مناقير طويلة وحادة فقط.وهذا غير صحيح، فهل الله يحب الظلم مثلاً؟ مستحيل.. مستحيل أن يحب الله الظلم والظالمين.. وأن يستوي في نظره ظالم ومظلم".

في ذلك المثال فسر الانتقاء الطبيعي الاختلاف في أشكال وأحجام المناقير، ولكن لم يفسر كيفية خلق أو ظهور تلك المناقير في المقام الأول، حيث كانت مجرد عملية انتقاء مما هو موجود أصلا، وكان الدافع لذلك التنوع في المناقير في البداية هو المعلومات الوراثية التي تحملها تلك العصافير، وليس بسبب معلومات جديدة تم إضافتها إليها!

إن الاختلافات في الطرز المظهرية التي نراها في كل الأنواع هي نتيجة للمعلومات الوراثية التي تحملها تلك الأنواع منذ بداية خلقها، فعلى سبيل المثال في الإنسان "يبلغ عدد الجينات الهجينة أي غير النقية ٦,٧٪"[2]، ويبلغ عدد الجينات في الإنسان تقريبا ٢١ ألف جين[3]، أي أن عدد الجينات الهجينة التي يملكها الإنسان في الجينوم الخاص به تبلغ ١٤٠٠ جين، أي أن أي شخص قادر على إنتاج حيوانات منوية أو بويضات مختلفة يبلغ عددها ١٤٠٠ ^ ٢ بواسطة إعادة التركيب Recombination، ولكي تتخيل مقدار ضخامة هذا الرقم فإن عدد الذرات في الكون يبلغ ٨٠ ^ ٢ فقط!

وصلنا للنهاية... ورأينا أن مصطلح التطور المُصغر Micro-Evolution هو نفسه الانتقاء الطبيعي، والانتقاء الطبيعي هو نفسه التكيف داخل النوع، ولكن الداروينية تجيد التلاعب بالمصطلحات لكي يصبح لفظ التطور مألوفا للآذان ولكي يصبح من السهل الادعاء بأن التطور نظرية مُختبرة في المعامل وتدعمها التجارب والملاحظات! ورأينا أن أفضل تفسير للتنوع البيولوجي هو أن الله خلق الأنواع كلها وأودع فيها المعلومات الكافية لإحداث هذا التنوع، ومما سبق يمكننا أن نختار التعريف الأكثر دقة وملائمة وهو مصطلح "تكيف الأنواع".

المراجع:

(1) Understanding Evolution team, "Evolution 101", An introduction to evolution. Last Accessed 8 June 2015. http://evolution.berkeley.edu/evolibrary/article/0_0_0/evo_01

(2) F.J. Ayala, "The Mechanisms of Evolution," Scientific American 239(3):48–61, September 1978, quoted on page 55

(3) David Bodine, "Is the exact number of genes in the human genome known?", Archive of the National DNA Day, National Human Genome Research Institute. Last accessed 8 June 2015. https://www.genome.gov/DNADay/q.cfm?aid=2&year=2012

هل تعجبت من قبل عن قدرة الطائر الطنان على الأكل أو الطيران؟ هل تعجبت من قدرة الطيور المهاجرة على التشكل في وحدة واحدة بهذا الشكل المذهل؟ هل سألت نفسك مرة عن كيف يعطي الريش الطيور قدرة أفضل على الطيران من أي طائرة صنعها البشر؟

أجوبة تلك الأسئلة وغيرها تجدها في هذا الفيلم المميز الذي أنصح به بشدة.. حين تجتمع متعة المشاهدة، مع المادة العلمية الهادفة، فنحن نتحدث عن فيلم "الرحلة"!

د. ستيفين ماير

مدير مركز العلوم والثقافة بمعهد ديسكفوري



قريبا على قناة مركز براهين على اليوتيوب



ترجمة: د. مازن دهان

Producer/Director
Lad Allen

Edited by
Jerry Harned

Written by
W. Peter Allen

Associate Producers
Paul Nelson
Timothy Standish

Scientists & Scholars
Paul Nelson
Ann Gauger
Thomas C. Emmel
Timothy Standish
Dylan Winter
Carsten Egevang





التطور المتقارب
ومنطق الدراونة المتهافت

فؤاد المقدسي

- تفترض نظرية داروين أن الأنواع المتشابهة لها نفس الأصل الذي انحدرت منه، وصار الاختلاف بفعل الطفرات التدريجية على مر ملايين السنين بعد تشعب الأنواع المختلفة، لكن هناك أسئلة كثيرة تسبب الإحراج لنظرية داروين؛ مثل ظهور الأنواع بشكل فجائي كما حصل في الانفجار الكامبري وأيضًا غياب المراحل الانتقالية بين الأنواع وأمور فلسفية أخرى تتعلق بكيفية تعريف النوع، إذ أننا لا نعرف متى يصبح النوع نوعاً آخرًا، لكن يبقى موضوع أو سؤال مهم جدًا لطالما تخبط الداروينيون في إجابته، وهو؛ إذا كان التشابه في الصفات أو الجينات يدل على التشارك في نفس المسار التطوري، أو بمعنى آخر التشارك بنفس السلف، فلماذا تتشارك أنواع ليس لها نفس السلف بنفس الصفات؟

- هل يعني هذا أن التطور قد تكرر بنفس الطريقة مرتين أو أكثر؟!

- هل يعني أن التطور يتبع نهجًا معينا وليس عشوائيا؟

- لماذا يتشابه نوعان ليس لهما نفس الأصل بنفس الصفات الحديثة تطوريًا؟

التطوريون كعادتهم بارعين في تقديم الحلول، فكما قدموا أعذارًا لمعضلة (الانفجار الكامبري) وغياب الأنواع الانتقالية، كانوا أيضا قادرين على تقديم الحل (السحري) لهذه المشكلة، ولذلك قدموا لنا (التطور المتقارب أو Convergent Evolution) ليكون بمثابة التطور رقم (٢) الذي يعمل فقط عندما لا ينجح التطور رقم (١) الذي يفترض أصل مشترك!

والتطور المتقارب يُعرف كالتالي: "الظهور المستقل لنفس الصفة في سلالات مختلفة".[1]

إذن هو تطور لنفس الصفات في أنواع لا تتشارك بنفس الأصل أو المسار التطوري مع العلم أن هذه الصفة لم تكن موجودة في السلف القديم الذي كان يربط هذه الأنواع قبل أن تنفصل أسلافها تطوريًا، أي أنها صفات جديدة، وعملية انتاجها من جديد تعني أن مجموعة الأحداث العشوائية والطفرات التي خلقتها أول مرة قد تكررت أكثر من مرة أو ربما جاءت بجينات أو أعضاء أخرى لتقوم بنفس الوظيفة، و تفسيرهم لذلك أن الأنواع التي تمر بنفس الظروف البيئية والحيوية تتعرض لانتخابات متشابهة مما يجعلها تنتهي بنفس الحلول!! ومثال على ذلك هو القدرة على الطيران عند الطيور والحشرات والخفاش كحيوان ثديي، فجميعهم من أصول تطورية مختلفة ومع ذلك فقد نجحوا في الإتيان بنفس الحل وهو القدرة على الطيران رغم وجود اختلافات في الأعضاء التي تقوم بالطيران، فجناح الخفاش يختلف عضويًا عن جناح الطيور وعن جناح الحشرات.

وربما هذا التفسير ينجح في هذه الأمثلة لأنها بالنهاية جاءت بنفس الحل باستخدام جينات وأعضاء مختلفة -وإن كان هذا يناقض منطق التطور العشوائي- لكن ماذا إن كانت الوظيفة تتم بتركيبات وجينات متشابهة؟

هل هناك تفسير لماذا مثلا أعين شعبة اللاسعات مثل قنديل البحر وأعين الفقاريات مثل الثديات كلاهما يعملون بنفس البنيات الجينية؟[2] كلاهما يمتلكون عين كاميرا تعمل بنفس المبدأ: مُستقبلات ضوئية وصبغة مُعتمة وعدسة ببروتين كرستالين؟

عين قنديل البحر هي من نوع عيون الكاميرا التي تمتلك قرنية وعدسة وشبكية وتعتبر من أول الأنواع التي ظهر فيها هذا النوع من الأعين كما يقول الداروينيون، والغريب أن المستقبلات الضوئية هي من نفس نوع مستقبلات الضوء عند الثديات "مُستقبلات ضوء هدبية".[2]

"The cubozoan retina has ciliated PRCs that are typical for vertebrate eyes."

قناديل البحر لها ٢٤ عين والمجال النظري لكل عين يتداخل مع أخرى لذلك فهو يستطيع أن يرى كل ما حوله، والغريب أن المكونات والبنيات الجينية (سيلياري أوبسن والميلانوجنك باثواي) هي نفس البنيات الجينية في الثديات مع العلم أن آخر وأقدم سلف مشترك بين هذه الشعبتين لم تمتلك عين كاميرا، هناك تفسيران:

- أن التشابه نتيجة وجود أصل أو سلف مشترك.

- أو أن التشابه هو نتيجة أصول مختلفة ومنفصلة ووُصف على أنه التفسير الأفضل.[2]

"Although our findings of unsuspected parallelism are consistent with either an independent origin or common ancestry of cubozoan and vertebrate eyes, we believe the present data favor the former alternative".

فمثل هذا التشابه وُصف بأنه غير متوقع Unsuspected Parallelism فكيف يُستخدم المنطق الدارويني لتفسير مجيء نوعين مختلفين من طوائف مختلفة جدا بنفس الحل بل وبنفس الآلية الجينية؟ نحن نتحدث هنا عن عين كاميرا علاوة على أنها مُعقدة جدًا ومتقدمة وفيها ما يكفي من التصميم المتقدم على كاميرات كثيرة في عصورنا الحديثة! إنها أيضا قد تكونت أكثر من مرة وانتهت بنفس التركيب الجيني.

إن كلا الشعبتين (اللاسعات والفقاريات) لها عدسات خلوية لتزيد من تركيز الصورة في العين وإعطائها حساسية أعلى، والبروتين المسؤول عن الخواص في العدسة هو الكرستالين، والشيء المُميز هنا هو أن البروتين الذي يقوم بدور الكرستالين يختلف من نوع لنوع. فإن جينات الكرستالين في اللاسعات والفقاريات غير متشابهة كما هو الحال بين الأنواع الأخرى و لكن الجينات التي تعمل على تنظيم نسخ وترجمة هذه الجينات وهي من نوع Pax متشابهة بين الشعبتين، وهو ما جعل التفسير الثاني (التطور المتقارب) هو المسؤول عن "جلب" هذه الجينات المتشابهة وليس الأصل المشترك، وهو كما وصف يُعتبر مثالا مفاجئا على دور التطور المتقارب بتطور العين.

الداروينيون يدعون أن التطور المتقارب هو نتيجة لكون الحلول محدودة وأنه هناك حل بسيط دائمًا لأي مشكلة[1]، وأن المجيء به يصبح متوقعًا إذ لا بديل له، أي أن تطور عين الكاميرا مرتين أو أكثر هو نتيجة حتمية لأنها أبسط حل يمكن التحصل عليه. وبذلك يكون التطور المتقارب هو الجواب على كل ما يعارض التطور بمفهومه العام، بمعنى آخر هو مزيلة التطور، فإذا لم تفهم كيف حصل ذلك فهو إذن بسبب التطور المتقارب. والآن لا يمكنك أن تضحد التطور! حيث إن لم يتشارك نوعان بنفس الأصل وتشاركوا بنفس الصفات والآليات فإن التفسير ينتقل من نظرية التطور الأولى إلى الثانية، وهكذا من منظور مادي فأي تفسير يتجنب وجود المُصمم الحكيم العليم عند التطوريين هو مقبول، وعلى هذا يمكنك أن تتخيل أو تحلم كما تشاء، يمكنك أن تقول أن هناك أكوان متعددة وهناك طريقة يتحول بها المادة غير العاقلة إلى عاقلة دون أن تعطي أدلة أو أي تفسير، لك أن تتخيل كما تشاء لكن لا تتجرأ وتقول أن عينك مُصممة، لأنه حينها ستوصف بالمُنغلق وصاحب العلم الزائف واللاهث خلف الكتب الدينية.

والحقيقة أن مَن يسعى للوصول إلى نتيجة يقررها هو سلفا، أو أن يستثني احتمالا لأنه لا يناسب فلسفته المادية، من الطبيعي أن يستخدم مثل هذه الأساليب الدفاعية لأنها سبيله الوحيد ليساند هرطقاته التي يرى أنها غير معقولة وغير مقبولة ومُنفرة للعامة وحتى لبعض الملحدين الذين بدأوا يشككون في داروين (راجع مثلا كتاب: Jerry Fodor and Massimo; What Darwin Got Wrong). لماذا لا يكون هذا الدليل مثله مثل غيره من الأدلة: الانفجار الكامبري وغياب المراحل الانتقالية للأنواع في السجل الأحفوري؟ وأن يكون كافيًا لاستنتاج أن أبسط تفسير هو وجود مصمم؟

إن المصمم الذكي (أو المُقدِر أو الخالق الحكيم في النظرة الإسلامية) هو ضرورة منطقية بسيطة لتفسير الذكاء والتنوع الحيوي، فالمُصمم (وكما نفهمه من تجربتنا في الحياة) هو القادر على استخدام آليات جينية ووظيفية متشابهة في أنواع متشابهة أو مختلفة، مثل استخدامنا لنفس القطع في آلات مختلفة لتقوم بنفس المهمة، أو ربما مهمة مختلفة بغض النظر عن تشابه هذه الآلات مع بعضها البعض شكلا أو وظيفة أو عدم تشابهها[3]، إننا نشاهد أمثلة حية من حياتنا اليومية على الطريقة التي يعمل بها التصميم، والغريب أنها تشبه التصاميم الموجودة في الحياة من حولنا!

إذن لو صحت مثل هذه النظرة المخاصمة للمنطق: فإنه من حق الحاسوب الذي يعمل باللمس ساعتها أن يدعي الدارويني أن أصله كان جهازا خلويًا تطور مع الزمن إلى فابلت ثم تابلت ثم لابتوب ثم أصبح حاسوبًا عاديًا ثم حاسوبًا باللمس!! وكل ذلك لأننا عندما نسأله لماذا تمتلك بعض الأجهزة الخلوية شاشة لمس مع أن سلفهم اللابتوب والحاسوب العادي ذي الفأرة لا يمتلكها؟ فإن الجواب منه سيكون حاضرا وقتها -وما أسهله وفق طريقته- إنه: التطور المتقارب.

المراجع :

(1) "Independent Appearance Of The Same Trait In Different Lineages".
Christin P-A. Weinreich DM. Besnard G; Causes and evolutionary significance of genetic convergence; Trends Genet 2010. 26:400-405

(2) Zbynek Kozmik et al; Assembly of the cnidarian camera-type eye from vertebrate-like components; PNAS 2008 105 (26) 8989-8993; published ahead of print June 24. 2008. doi:10.1073/pnas.0800388105

(3) Stephen C. Meyer. "The Cambrian Information Explosion." in Debating Design. p. 388; William A. Dembski and Michael W. Ruse eds.. Cambridge University Press. 2004



بيولوجية الرايخ الثاني

«الداروينية الاجتماعية وأصول الحرب العالمية الأولى»

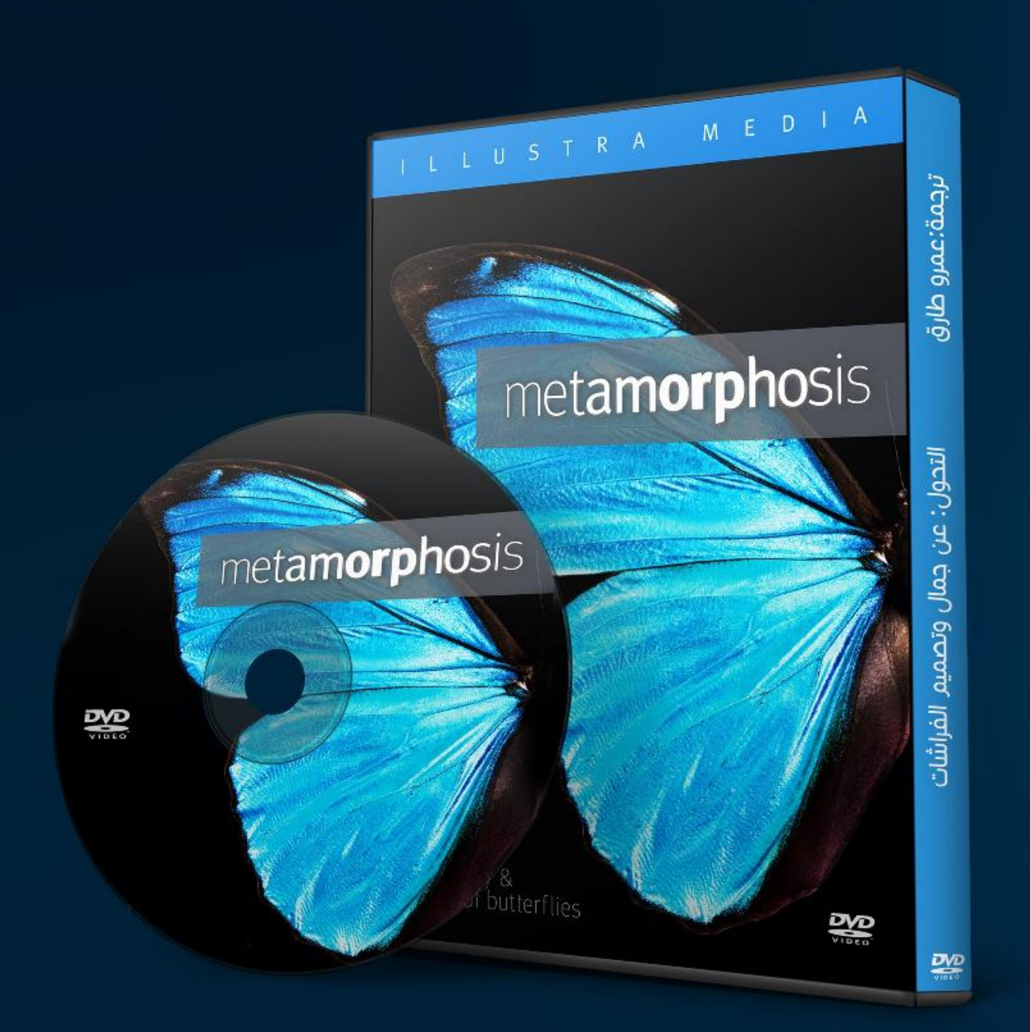
ترجمة: مهند التومي







عن جمال وتصميم الفراشات



نسعد بتواصلكم

fb.braheen.com

t.braheen.com

info@braheen.com



لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية

for Studying Atheism and Contemporary Issues of Faith